

جامعة بيروت العربية

عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك

دراسة مقارنة

للدكتور عمر عبد العزيز عمر
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٧٨

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني

الإسكندرية

جامعة بيروت العربية

عبد الرحمن الجبرتي وفقولا الترك

دراسة مقارنة

للدكتور عمر عبد العزيز عمر
أستاذ التاريخ الحديث [redacted]
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٧٨

طبع في دار الاحد (البحيري اخوان) بيروت

في مطلع القرن التاسع عشر واجهت مصر وشعبها وحدهما أول اعتداء غربي مسلح على البلاد في العصر الحديث، وانكسر للمرة الأولى جدار العزلة التي فرضت عليها منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ والفتح العثماني عام ١٥١٧. ولم تفد سياسة العزلة والانقطاع التي عمل العثمانيون على فرضها على مصر في تجنيبها ويلات الغزو الفرنسي؛ بل إنها بما أشاعت في مصر من جهل بحقيقة الأوضاع والقوى العالمية، يسّرت لهذا الغزو طريق النصر. وافتتحت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) مرحلة طويلة من التنافس الانجليزي الفرنسي على مصر انتهت بالاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢. وقد غالى البعض في تقييم النتائج الأخرى للحملة الفرنسية، وتصوروا أن حركة التجديد والتغيير قد بدأت في مصر أثناء وجود الحملة. حقيقة أن الاحتلال الفرنسي مهّد الطريق لحدوث تغييرات جذرية في مصر خلال القرن التاسع عشر، حددت مقومات النهضة المصرية الحديثة، ولكن من التجني أن ينسب إلى الاحتلال الفرنسي مباشرة تلك الميول الفرنسية القوية التي أثرت في الثقافة المصرية، والتي برغم التقلبات السياسية المختلفة لا نزال نلحظها حتى الوقت الحاضر. فالأدباء والعلماء الذين صحبوا الحملة جاءوا إلى مصر ليتعلموا أكثر من أن يُعلموا، كما أن بحوثهم التي نُشرت في كتاب وصف مصر (Description de l'Egypte) كانت أساس البحث العلمي الحديث في كل ما يخص التاريخ والمجتمع والاقتصاد المصري [١]. وكان الهدف من إخراج هذا الكتاب هو نشر المعرفة ورفع اسم فرنسا.

---

(١) J. Heyworth-Dunne, *An introduction to the history of education in modern Egypt* (London, n.d.), p. 96.

وكل ما يمكن أن نتصوره هو أن الحملة الفرنسية قد ضعضعت البنيان الاجتماعي القائم ، وهزت المفاهيم الفكرية والاجتماعية التي كان المجتمع المصري يخضع لها . ولم يكن في إمكان الحملة بسبب قصر المدة التي قضتها في البلاد أن تحدث تغييراً جوهرياً في حياة المجتمع وتطوره ؛ كما أن الحواجز التي كانت تفصل المصريين عن حكامهم الفرنسيين المخالفين لهم في اللغة والدين والقيم الاجتماعية قد حدت من تفاعلهم بالمؤثرات الغربية . وعلى ذلك فإن الغرس الحقيقي للثقافة الفرنسية في مصر يمكن إرجاعه إلى عصر محمد علي ، إذ دخلت أفكار فرنسية كثيرة إلى البلاد إبان حكمه على أيدي رجال من أمثال دروڤيتي (Drovetti) ، قنصل فرنسا في مصر ، والضباط الفرنسيين الكثيرين الذين بقوا في البلاد بعد انسحاب الفرنسيين ، أو عادوا إليها فيما بعد إثر سقوط نابليون .

ولقد عاصر الحملة الفرنسية على مصر وراقبها وسجل أحداثها بالتفصيل شاهدا عيان هما شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي والمعلم نقولا الترك . ومن خلال مشاهداتهما التي تعتبر أقدم ما كتب باللغة العربية عن تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر ، يستطيع الباحث أن يستشف موقف المجتمع الشرقي المحافظ من حضارة الغرب ، وكذلك من الفلسفات السياسية والاجتماعية التي كانت تتصارع في عصرهما ، لا سيما وأن مصر قد ابتعدت عن التيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تشع من الغرب ما يقرب من ثلاثة قرون . ويحظى كتاب الجبرتي — على وجه الخصوص — باهتمام بالغ ، فقلما يوجد كتاب فرنسي في تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع إليه ولم ينقل عنه[1]. كما أن التساؤلات التي تدور حول أثر الحملة الفرنسية في المجتمع المصري وموقف المصريين من العلوم الوضعية والتكنولوجيا ومدى استجابتهم لها نجد لها تفسيراً وتحليلاً في وصف هذين الكاتبين للاحتلال الفرنسي لمصر . ونظراً لأهمية ما كتبه الجبرتي ومعاصره اللبناني نقولا

(١) David Ayalon, "The historian al-Jabarti and his background," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. XXIII. 2 (1960), pp. 228 — 229, 233 — 234.

الترك من ملاحظات ومشاهدات عن الحملة، تهتم هذه الدراسة المقارنة بنشأتها وبيئتها، وأسلوبها ومنهج كل منها، والمؤثرات التي أثرت فيها، والدوافع التي دفعتها إلى كتابة التاريخ، وموقفها من الحملة وأحداثها وتطوراتها، ومدى التشابه والاختلاف في تصويرها للفرنسيين وأهدافهم وتنظيماتهم وعاداتهم وعلومهم وفنونهم التي استحدثوها.

ونبدأ دراستنا الآن بشيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي الذي يُعتبر أحد كبار المؤرخين في العالم الإسلامي في جميع أزمنته، فهو بلا جدال أعظم المؤرخين العرب في الأزمنة الحديثة. والجبرتي هو عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الحنفي (١٧٥٤ — ١٨٢٥) الذي ينتسب وأسرته إلى « جبرت »(١)، وهي إقليم ساحلي يقع إلى الغرب من ميناء زيلع بالحبشة بالقرب من مدخل البحر الأحمر. وقد كتب الجبرتي عن موطن أجداده فقال « وبلاد الجبرت... بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة وهم المسلمون... ويتمذهبون بمذهب الحنفي والشافعي... ويُنسبون إلى سيدنا أسلم بن عقيل بن أبي طالب ... وهم قوم يغلب عليهم التقشف والصلاح ويأتون من بلادهم بقصد الحج والمجاورة في طلب العلم، ويحجون مشاة ولهم رواق بالمدينة المنورة، ورواق بمكة المشرفة، ورواق بالجامع الأزهر بمصر »(٢). وفي أوائل القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين) نزح الجد السابع للجبرتي، واسمه عبد الرحمن، من جبرت إلى مكة فالمدينة حيث مكث بها سنتين قضاهما في الدراسة، ثم ارتحل إلى مصر، واستقر بها، واتصل بالعلماء إلى أن اختير شيخاً لرواق الجبرت(٣). وتولى مشيخة الرواق ثلاثة قرون متوالية أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتي.

---

(١) انظر : محمد محمود الصياد : جبرة وجبرت، ص ٥٨٣ — ٥٩٤، في كتاب عبد الرحمن الجبرتي — دراسات وبحوث، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق، ١٢٩٧ هـ/١٨٧٩— ١٨٨٠ م، ج ١، ص ٣٨٥.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٨.

ونشأ الجبرتي في أسرة اشتهرت بخدمة العلم ، فكان والده الشيخ حسن الجبرتي (١٦٩٨ — ١٧٧٤) عالماً من أكبر علماء عصره في العلوم الشرعية والرياضية والتوقيت . ولقد اختلطت في الشيخ حسن الجبرتي ، الذي كان من ثراة الأزهريين ، شخصية العالم بشخصية رجل الأعمال ، فمع اشتغاله بالعلم «كان يعاني التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة»..[1]. وكان في الوقت نفسه أستاذاً في الأزهر ولم يقصر اهتمامه على تدريس الفقه وعلوم الدين ، بل وجه نفسه إلى دراسات أخرى متعددة ؛ فتعلم اللغتين التركية والفارسية وأجادهما ودرس الرياضيات ، والهندسة ، والجبر ، والمساحة ، والجغرافية ، والفلك ، وحل الرموز وقام بتدريسها ، «وانتهت إليه الرياسة في الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة» . وتجاوزت شهرته حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر إليه طلاب من الافرنج ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة[2]. وقد جمع حسن الجبرتي الكتب النادرة وأنفق في اقتنائها مالاً كثيراً ، وأفرد في بيته مكاناً خاصاً وضع فيه الكتب المتداولة بين علماء الأزهر في التوحيد والحديث والتفسير والفقه والمنطق والاستعارات والمعاني والبيان[3].

ولكن اهتمامات حسن الجبرتي لم تشمل دراسة التاريخ ، إذ ليس من المؤكد أن مكتبته الخاصة التي كان العلماء يستعيرون منها قد ضمت أعمالاً تاريخية . وعلى ذلك ، فإن اهتمام المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بدراسة التاريخ وكتابته لم ينتقل إليه عن طريق والده ، ولكن نشأته في بيت والده — الذي أصبح مركزاً للعلم والبحث — قد أثرت دون شك في تحديد نظرته التاريخية وخلقت لديه وعياً بالتاريخ وفلسفته . فلقد نشأ الجبرتي بين علماء الأزهر الذين خالطهم فيه أو في بيته ، وسمع بأخبارهم جيلاً بعد جيل من أبيه ، وكذلك بين المماليك والكشاف والصناجق لكثرة ما

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

كان أبوه يروي عليه من آثارهم وأخبارهم . ووجد عبد الرحمن الجبرتي نفسه وهو بعد في سن العاشرة — سن التمييز كما يقول — بين عالمين هائلين متجاورين، أحدهما قوامه العلم والدين ، والآخر قوامه السياسة والحرب والدسيسة والمال . وهكذا أثرت هذه الظروف التي عاش فيها الجبرتي في إبراز ملكة التأريخ عنده [1].

وبعد وفاة والده ، استمر عبد الرحمن الجبرتي متصلاً بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ويزورونه في بيته . ولما كبر وأجازته شيوخه أخذ يلقي دروساً في الأزهر وفي بعض المساجد ، وفي بيته . وكان من بين العلماء الذين اتصل بهم عبد الرحمن الجبرتي ولازمهم وقرأ عليهم وأخذ العلم منهم العالم اللغوي السيد محمد مرتضى الزبيدي (١٧٣٢ — ١٧٩١) ، صاحب المعجم المشهور « تاج العروس من شرح جواهر القاموس » . وكان الزبيدي ، وهو من علماء اليمن أصلاً ، علماً من أعلام الفكر والعلم لا في مصر وحدها ، بل في جميع أنحاء العالم الاسلامي [2]. وفي حوالى عام ١٧٨٩ عرض الزبيدي على تلميذه عبد الرحمن الجبرتي أن يعاونه في جمع تراجم عن أعلام القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي) من مصريين وحجازيين دون أن يُعرِّفه بالقصد من جمعها . فاستجاب لاقتراح أستاذه وأخذ يعد البطاقات بالأعلام والحوادث الجسام ، وكان يسميها « طيارات » ويحشد فيها كل ما تذكّره من أحاديث والده عن العلماء والحكام. وظل الجبرتي يعد « الطيارات » ويدون الكراريس ويعرضها على الزبيدي حتى توفي الأخير عام ١٧٩١ [3].

(١) D. Ayalon, "The historian al-Jabarti and his background", *BSOAS*, XXIII.2 (1960), pp. 240 — 241

(٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٩٦ — ٢١١ ؛ أنظر أيضاً : جمال الدين الشيال : محاضرات في الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ، السلسلة الثانية ، معهد الدراسات العربية العالية (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٤٣ — ٨٠ .

(٣) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

وبعد موت الزبيدي اكتشف عبد الرحمن الجبرتي سبب تكليفه له بجمع هذه التراجم ، إذ جاءته رسالة من الشيخ محمـــد خليل المرادي ، قاضي دمشق ومؤلف كتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » يطلب فيها إليه أن يوافيه بكل ما قد أعد هو وأستاذه من أوراق وجمع من وقائع . وهنا أدرك عبد الرحمن الجبرتي أن ما طلبه الزبيدي إنما كان بتكليف من المرادي ، وحاول أن يظفر بأوراق أستاذه من ورثته . وعندما باعت أرملة الزبيدي تركته بما فيها من « الكتب والدشتات » بالمزاد ، اشترى الجبرتي منها ما يريد وكان من بينها عشر كراريس من التراجم مدونة بقلم الزبيدي وسماها « المعجم المختص »[1]. ولما تصفحها الجبرتي وجدها عديمة القيمة لأنها كانت تتناول سير « أفاقيون من أهـل المغرب والروم والشام والحجاز بل والسودان ، والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات » . وعندما لاحظ عبد الرحمن الجبرتي ذلك وتحقق من رغبة المرادي ، قام بجمع ما كان قد سوده وزاد عليه ، إلا أنه بلغه في تلك الأثناء (أكتوبر عام ١٧٩١) نبأ وفاة المرادي . ففترت همته وطرح تلك الأوراق « في زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع إلى أن حصل عندي باعث من نفسي على جمعها » كما يقول[2].

ورغم أن المرادي كان هو « السبب الأعظم » الذي دعا عبد الرحمن الجبرتي إلى جمع تاريخه على هذا النسق[3] ، فإن تأثيره المباشر عليه ليس ملحوظاً . فالجبرتي لم يحظ بلقائه قط ، كما أنه لم يطلع على مؤلفه « سلك الدرر » ، ولم تستمر المراسلات بينهما أكثر من نصف عام ، وهي الفترة الواقعة بين وفاة الزبيدي والمرادي[4]. أما تأثير أستاذه الزبيدي عليه فكان كبيراً ، إذ يطلق عليه الجبرتي في مؤلفه لقب « شيخنا ». ومما لا شك

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

فيه ان اتصال الجبرتي بعالم مثل الزبيدي، كان يتميز بسعة المعرفة ووفرة الانتاج ، أو على حد قول الجبرتي نفسه «علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأفهام » ، قد أثر تأثيراً عميقاً فيه . ولذلك فالزبيدي يحتل المرتبة الثانية بعد والد الجبرتي في تأثيره عليه ومساعدته في الحصول على معلومات كافية عن الشخصيات والمجتمع الذي قام بوصفه في كتابه . وإذا كان الزبيدي لا يُعتبر أستاذاً للجبرتي في دراسة التاريخ ، إلا أنه كان له بعض الفضل عليه في هذا الميدان . ورغم أن مؤلف « تاج العروس » لا يمكن أن يُوصف بأنه مؤرخ، إلا أنه وضع تسع مؤلفات في التاريخ ما بين كتاب ورسالة[١]. ومن المؤكد أن يكون عبد الرحمن الجبرتي قد تعلم بعض الشيء من منهج الزبيدي التاريخي أثناء عملهما المشترك بناء على طلب المرادي . ويذكر الجبرتي نفسه المناقشة الطريفة التي دارت بينه وبين أستاذه عندما أطلعه على جزء مما جمعه فيقول : « جمع الحقير [يقصد الجبرتي نفسه] ... ما تيسر جمعه وذهبت به يوماً وعنده [يقصد الزبيدي] بعض الشاميين فأطلعته عليه فسرّ بذلك كثيراً وطارحني وطارحته في نحو ذلك بمسمع من المجالس »[٢].

وعلى أية حال ، توقف عبد الرحمن الجبرتي عن متابعة بحثه حين وصله نبأ وفاة المرادي ، كما أن بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يتعد بعض التراجم . وهكذا انقطع الجبرتي عن كتابة التاريخ بعد عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) ، ولم يعد إليها في شكلها الجديد وهو المذكرات اليومية إلا في عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨ م) عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر[٣]. فلقد شجعه مجيء الحملة الفرنسية على معاودة الكتابة من جديد لتأريخ أحداث الحملة ، فكتب مخطوطاً بعنوان « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر » يؤرخ فيه للشهور السبعة الأولى للحملة ابتداء من ١٠ محرم عام

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ جمال الدين الشيال : الحركات الإصلاحية ، ص ٧٥ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٣) محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ، معهد الدراسات العربية العالية (القاهرة ، ١٩٦٢) ، ص ٣٤ — ٣٥ .

١٢١٣ هـ (٢٥ يونيو ١٧٩٨ م) حتى نهاية شهر رجب من نفس العام (ديسمبر ١٧٩٨ م) [1]. واعتمد الجبرتي فيما بعد على هذا المخطوط في إعداد كتابيه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » و « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » بعد أن حذف الآراء الصريحة والأخبار التي تسيء إلى سمعة بعض الأشخاص . ويشير الجبرتي نفسه إلى هذا الأمر في مقدمة « مظهر التقديس » فيقول : « ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق غير منظومة ... وكثيراً ما كان يخطر ببالي ، وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالي ، أن أجمع افتراقها ، وأكسبها بالترصيف اتساقها ، ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً للبيب عن عجائب الأخبار وغرائب الآثار ، تذكرة بعدنا لكل جيل » [2].

وفي أعقاب خروج الفرنسيين من القاهرة في ١٤ يوليو عام ١٨٠١ ، دخلت القوات العثمانية القاهرة بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، وعادت مصر مرة أخرى إلى حكم العثمانيين . وقد ابتهج الجبرتي كغيره من المصريين بهذا الأمر ابتهاجاً عظيماً ، وسجل هذا الشعور في كتاب اشترك في تأليفه معه صديقه الشيخ حسن العطار وسماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . وبدأ في تأليف هذا الكتاب في شهر صفر عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) وانتهى منه في شهر شعبان من نفس السنة ، أي في مدة ستة أشهر فقط. ويبدو من إهداء الكتاب إلى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا أن الكتاب قد ألف بتكليف منه ، وهو بذلك يمثل التاريخ الرسمي للحملة الفرنسية . وبدأ الكتاب ، بعد الحمدلة ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية ، ولام المماليك على تهاونهم في تحسين الثغور والعناية بعدة الحرب ورجالها ، وسلوكهم مع أهل مصر ، ثم ذكر السلطان سليم الثالث

---

(١) S. Moreh, "Reputed autographs of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and related problems", *BSOAS*, vol. XXVIII.3 (1965), pp. 524 — 540.

(٢) « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس — يوميات الجبرتي » ، جزءان ، نشر محمد عطا (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٠ .

العثماني (١٧٨٩ – ١٨٠٧) وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين . وذكر صدره الأعظم يوسف ضيا بأوصاف لا تـكاد تنتهي من المدح والتفخيم والإشادة والتعظيم[١]. كما وضحت في هذا الكتاب فكرة التمسك بالدولة العثمانية والترحيب بعودة جيشها إلى مصر ، واعتبار هـذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ، ونهاية حكم الفرنسيين الذين كان يشير إليهم في مواضع كثيرة من الكتاب بأنهم « الكفار » و« عصابة الكفار » و« دولة الكفر ». ولقد أحسن يوسف ضيا باشا استقبال الكتاب لأنه بعد عودته إلى استانبول أطلع السلطان سليم الثالث عليه فأمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية ففرغ من ذلك عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٣ م)[٢] ، وأصبح عنوان الكتاب المترجم « انقاذ مصر من الفرنساوية »[٣].

وهكذا قام الجبرتي حتى عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) بعملين علميين هامين هما تراجم متناثرة لأعيـان القرن الثاني عشر الهجري ، ومذكرات يومية لأحداث مصر في ظل الاحتلال الفرنسي . وفي عـام ١٢٢٠ هـ / ١٢٢١ هـ بدأ الجبرتي في كتابة مؤلفه الشهير « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » كتابة منظمة مستمرة . ويبدو أن الدافع الرئيسي الذي دفع الجبرتي إلى كتابة مؤلفه هذا هو خيبة الأمل التي أصابته بعد عودة العثمانيين ، فأدرك أن الحكم العثماني لم يكن خيراً من الحكم الفرنسي بل ربما كان الحكم الفرنسي يفضله من بعض الوجوه[٤]. ويقع « عجائب الآثار » – الذي يعتبر مصدراً من أهم مصادر تاريخ مصر الحديث ، وسجلاً حافلاً جامعاً دقيقاً لحوادث السنين التي أرخ لها – في أربعة أجزاء . ويقول الجبرتي في مقدمة كتابه :

---

(١) محمود الشرقاوي : دراسات في تاريخ الجبرتي – مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء الأول (القاهرة ، ١٩٥٧) ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٢) محمـد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر – الجزء الأول (مايو ١٩٥٦) ، ص ٦٥ .

(٣) محمود الشرقاوي : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ٦٢ – ٦٤ .

«إني كنت سودت أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه، وأوائل القرن الثالث عشر الذي نحن فيه، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية، وأخرى محققة تفصيلية، وغالبها محن أدركناها، وأمور شاهدناها، واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها، ومن أفواه الشيخة تلقيتها، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم فأحببت جمع شملها، وتقييد شواردها في أوراق منسقة النظام، مرتبة على السنين والأعوام، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة، ويستفيد ما يرومه من المنفعة، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية، فيتناسى إذا لحقه مصاب، ويتذكر أولو الألباب..... [وسميته] عجائب الآثار في التراجم والأخبار»[١].

وطبع كتاب الجبرتي لأول مرة في عام ١٨٧٨ عندما قام أديب اسحق بنشر الجزء الثالث الذي كتبه الجبرتي عن الحملة الفرنسية مستقلاً بعنوان «تاريخ الفرنسيين في مصر» في جريدة مصر بالاسكندرية[٢]. وكان المسيو كردان، مترجم القنصلية الفرنسية في الاسكندرية، قد ترجم هذا الجزء إلى اللغة الفرنسية وطبع بباريس عام ١٨٣٨[٣]. وفي عام ١٢٩٧ هـ/١٨٧٩—١٨٨٠م، أي بعد تولي الخديو توفيق عرش مصر مباشرة، طبع الكتاب لأول مرة بالمطبعة الأميرية ببولاق، وطبع أولاً الجزءان الثالث والرابع، وفيه بعض من تاريخ محمد علي، ثم تلاهما الجزءان الأول والثاني[٤]. وترجم «عجائب الآثار» إلى اللغة الفرنسية، ونشر في تسعة أجزاء وطبع بالمطبعة الأميرية بين عامي ١٨٨٨ و١٨٩٦[٥]. وذكر المترجمون وهم شفيق

---

(١) عجائب الآثار، ج ١، ص ٢ — ٣.

(٢) محمد الشرقاوي: المرجع السابق، ص ٣٢.

(٣) Alexandre Cardin, *Journal d'Abdurrahman Gabarti pendant l'occupation française d'Egypte, suivi d'un précis de la même Campagne par Mou'allem Nicolas el-Turki secrétaire du prince des Druzes*, Paris, 1838.

(٤) عجائب الآثار، ج ١، ص ٢ من المقدمة.

(٥) *Merveilles biographiques et historiques ou chronique du Cheikh Abd-El-Rahman El-Djabarti.*

بك منصور يكن ، وعبد العزيز كحيل بك ، وجبرائيل نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون أفندي ، في مقدمتهم للترجمة الفرنسية أن نوبار باشا هو الذي أوحى إليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان مُعيناً لهم في القيام بالمشروع .

وقد اتبع الجبرتي في كتابة تاريخه طريقة اليوميات والحوليات ، فجاء سجلاً حافلاً بالأحداث ، ولذلك كان لهذا الكتاب شأن كبير كشأن الجريدة المعاصرة لأنه دوّن فيه كل الحوادث التي شاهدها . واهتم الجبرتي في الجزئين الأولين بتراجم الرجال وسير المماليك والعلماء وغيرهم ، أما في الجزئين الآخرين فقد ازدادت عنايته بتسجيل الأحداث والوقائع . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تراجم الجبرتي تحوي الكثير من المعلومات المتعلقة بالحوادث حتى التي لم ترد في سياق الأخبار نفسها . ولذلك فمن الخطأ أن يقتصر البعض على الأخبار دون الاستعانة بالتراجم في فهم هذه الأخبار نفسها . ومن الواضح أيضاً أن الجبرتي دوّن تاريخه هذا دون أن يظهر أية عاطفة فيما يكتب . ففي الجزء الثالث — على سبيل المثال — سجل الجبرتي بأمانة وإفاضة حوادث الحملة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لجنود نابليون في صفحات طويلة لا يستبين فيها القارئ أي لون من ألوان العاطفة . ويتضح من أسلوب الجبرتي في كتابه أنه كان يكتب حسبما يملي عليه اعتقاده ، ولم يفته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير ، فمدح اعتدالهم وعدالتهم ، وذكر الاصلاحات التي أحدثوها في مصر ، وعدّد مساوئ الحكم العثماني كما ذكر مساوئ الحكم الفرنسي . ولم يتحيز الجبرتي في كتابه لطائفة أو لدولة أو لأي إنسان مهما عظم نفوذه ، فأورد الحقائق دون أن يتأثر بجاه من يكتب عنهم . وأكد الجبرتي على هذا الاتجاه في كتابه بقوله : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفساني أو غرض جسماني »[1].

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .

ولقد تميز منهج الجبرتي في الكتابة والتأليف بالدقة في استقصاء الحوادث ، وبالموضوعية التي نستشفها من تأكيده أنه كان يكتب للحقيقة والتاريخ . وأدرك الجبرتي أهمية الاستعانة بالوثائق في كتابة التاريخ ، فأورد العديد منها وضمنها تاريخه مثل منشور نابليون ؛ والنص الكامل لمحاكمة سليمان الحلبي؛ والأوامر والقوانين التي كان يصدرها حكام مصر من عثمانيين ومماليك وفرنسيين [1]. ويتمشى هذا الاتجاه إلى حد كبير مع الدقة التي تميزت بها كتاباته . كما اتبع الجبرتي في جمع مادته التاريخية وترتيبها وتبويبها منهجاً علمياً حديثاً إذ استخدم طريقة « الطيارات » أو ما نسميه الآن بالبطاقات. ولنا الآن أن نتساءل عن مفهوم الجبرتي عن علم التاريخ وفائدته وأهدافه. يقول الجبرتي نفسه : « ان التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم ، وصنائعهم ، وأنسابهم، ووفياتهم، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، والشعراء ، والملوك ، والسلاطين ، وغيرهم . والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي ، وكيف كانت ، وفائدته العبرة بتلك الأحوال ، والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين ، من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويجتنب سوء أقوالهم ، ويزهد في الفاني ، ويجتهد في طلب الباقي » [2]. ومنهج الجبرتي هذا وفهمه للتاريخ يؤكد حقيقة انتمائه إلى مدرسة المؤرخين الاسلاميين التقليديين ، فكان يرى – مثلهم – أن من أهم فوائد التاريخ العبرة بما جرى للغابرين والتنصح بأحوالهم .

وظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتي يعتبر ظاهرة من الظواهر التاريخية التي ليس لها تفسير واضح ، لا سيما وأن الكتابة التاريخية قد تدهورت

---

(١) جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٠ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣ .

في تلك الفترة ، وتسربت الكتب التاريخية خارج البلاد . ويذكر الجبرتي بعض الأسباب التي أدت إلى تدهور الكتابة التاريخيـة فيقول : « فإنا لم نر من ذلك كله [أي كتب التاريخ] إلا بعض أجزاء مدشتة بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحّافين ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم »[١]. ولكن الجبرتي أولى دراسة التاريخ اهتماماً بالغاً ، واختلف عن معاصريه الذين نبذوا التاريخ « وأغفلوه ، وتركوه ، وأهملوه ، وعدّوه من شغل البطالين ، (وقالوا أساطير الأولين) »[٢]. وخطا الجبرتي خطوة كبيرة في إحياء الكتابة التاريخية وبعثها من جديد ، وعلل اتجاهه هذا بقوله : « كان علم التاريخ علماً شريفاً ، فيه العظة والاعتبار ، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار ، وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السالفة في أم الكتاب ، فقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب)[٣] ، وجاء من أحاديث سيد المرسلين كثير من أخبار الأمم الماضين كحديثه عن بني اسرائيل ، وما غيروه من التوراة والانجيل ، وغير ذلك من أخبار العجم والعرب ، مما يقضي بمتأمله إلى العجب ، وقد قال الشافعي رضي الله عنه : « من علم التاريخ زاد عقله »[٤].

ورغم دقة الجبرتي وكفايته في تدوين الحوادث ومداومته على البحث والاستقراء ، لم يكن أسلوبه يسير على نسق واحد ، بل كان مصرياً عامياً كثير الأغلاط في المفردات وفي العبارة . ولم يلتزم الجبرتي السجع ولكنه أحياناً يتفصّح به في غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكاً . وقد اعتذر الجبرتي في مؤلفه عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : « هذا

---

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ص ٥ ؛ وآخر ما جاء بالنص من سورة الفرقان ، الآية رقم (٥) .
(٣) سورة يوسف ، الآية رقم (١١١) .
(٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤ — ٥ .

مـــع اعترافي بقصور الباع ، وفتور الطباع ، في قوانين المعاني العربية ، ودواوين المثاني الأدبية » . ورغم ذلك ، فقد اختلفت تفسيرات الباحثين حول ضعف الأسلوب وكثرة الأخطاء . فيرى البعض أن وجود الأخطاء النحوية ليس دليلاً على جهل الجبرتي بها ، فلقد آثر أن يكون قريباً من العامة في تعبيره وأن تبقى أخطاؤهم في تعبيرهم وفي كتابه [1]. ويعلل البعض الآخر هذه الظاهرة بأن الجبرتي لم يفرغ للأدب ولا مهر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمد إلى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ؛ وقد وفى الجبرتي بذلك كله . أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج إلى مثل الوقت الذي ألّف كتابه فيه ، لا سيما وأن الجبرتي ربما مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب . ويعتقد أصحاب هذا الرأي بأنه لو كان العمر قد طال به لنقّح وهذّب وفتش، وأضاف إلى صناعة التاريخ صناعة الكتابة [2]. وإذا كانت بعض عبارات الجبرتي قد تميزت بحسن اللغة والتعبير فمرد ذلك إلى المصطلحات والألفاظ الشرعية السائدة في الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الأدب . وأياً ما كان الأمر ، فقد غلب على الجبرتي طابع العصر الذي عاش فيه ، فكانت لغته تمثل لغة المثقفين في عصره ثقافة لغوية دينية مصدرها الأزهر في ذلك الوقت .

ويغطي الجزء الثالث من « عجائب الآثار » تاريخ الحملة الفرنسية التي سجل احداثها أيضاً معاصره نقولا الترك ، وهو عبارة عن مستخرج معدل من « مظهر التقديس » مع إضافة حوادث ما بين عامي ١٢١٦ و١٢٢٠ هـ. ولا يعني هــذا التعديل مجرد التنظيم والتبويب لإخراج جديد بل يحمل

---

(١) الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، نشر أحمد زكي عطية وآخرين ، ج ١ ، المقدمة .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٥٥) ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

تغييراً موضوعياً في تفكير الجبرتي السياسي[1]. ونلاحظ عند المقارنة بين بعض النصوص الواردة في مظهر التقديس وعجائب الآثار مقدار التبـاين في عاطفة الجبرتي وموقفه المعدّل ؛ ففي « مظهر التقديس » حمل الجبرتي حملة شديدة على الفرنسيين والمماليك ، ولم ينظر إلى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية ، وأكـد التمسك بالتبعية العثمانية والترحيب بعودة العثمانيين . أما في « عجائب الآثار » فقد غـيّر الجبرتي آراءه وحمل على الدولة العثمانية وأثنى على الفرنسيين في عدة مواضع ، وبذلك نظر الجبرتي إلى الأحداث بعين الناقد الموضوعي، فليس كل ما هو غير إسلامي بسيئ ، وليس كل حكم إسلامي طيباً . ومما لا شك فيه أن الجبرتي عندمـا قام بإعادة كتابة تاريخ الحملة الفرنسية في الجزء الثالث من عجائب الآثار ، قد برزت صفته كمؤرخ اكثر منـه كاتب مذكرات ، فقام بفحص أحداث الحملة وتقييمها بعمق ودقة[2]. ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن أحداث الحملة بمثل اسهابه وتحقيقه ، فلقد مكنته عضويته في الديوان الذي أنشأه الجنرال مينو، وصلته القوية برجال الحملة الفرنسية ، وصداقته الوطيدة للشيخ اسماعيل الخشاب — أمين محفوظات الديوان — مكنته من معرفة دقائق الأسرار[3]. ومن ناحية أخرى، أيقظت الحملة الفرنسية عقول بعض علماء مصر ومن بينهم الجبرتي، فكانت كتابته « في تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة .... »[4].

أمـــا المؤرخ الثاني الذي كتب عن الحملة الفرنسية باللغة العربية بعد عبد الرحمن الجبرتي ، فهو المعلم[5] نقولا بن يوسف بن ناصيف أغـا الترك

(١) محمد أنيس : الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار، ص ٦٣ – ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية (القاهرة، ١٩٥٠)، ص ٢٣/٢٧.

(٤) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي (القاهرة ، ١٩٣٨) ، ص ٢٤.

(٥) المعلم لقب لشخص وجيه متعلم ، وهو مستمد من الانجيل لأن السيد المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب « المعلم » وكان يناديه الناس بالمعلم وقد رفض أي لقب آخر . وكان وصف نقولا « بالمعلم » دلالة على ممارسته تعليم القراءة والخط لبعض أبناء الأسر الأرستقراطية .

(١٧٦٣ — ١٨٢٨)، الذي وضع كتاباً عن تاريخ الحملة في مصر والشام اسمه «ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية».

وينتسب نقولا الترك إلى أسرة يونانية الأصل من القسطنطينية تحولت إلى المذهب الكاثوليكي في أوائل القرن الثامن عشر. وارتحل والده إلى دير القمر، عاصمة لبنان في ذلك الوقت، حيث ولد له نقولا الذي نبغ في الأدب شعراً ونثراً. وعندما نزلت الأسرة دير القمر نسبها الوطنيون إلى «التركية» وعلق لقب «الترك» بنقولا[١]. ولسنا نعرف الكثير عن نشأة نقولا الترك وحياته سوى ما نعرفه عن اتصال والده بالشهابيين على عهد الأمير يوسف الشهابي (١٧٧٠—١٧٨٨)، واختصاصه بأبنائه وكاخيتهم أبي عسّاف جرجس باز وقيامه بالمهمات الدقيقة في سبيلهم. وظل نقولا يتردد على قصر الأمير بشير الكبير (١٧٨٨—١٨٤٠) ويقوم بمهماته في بلاطه رغم أنه قتل والده يوسف الترك في عام ١٨٠٧ «لأنه كان متقدّم [كذا] عند جرجس باز ويسمع كلامه»[٢]. وعلى أية حـال كان نقولا شاعراً مكرماً في بلاط الأمير بشير، وكان ينفق عليه وعلى أسرته بسخاء.

وكان نقولا الترك قد زار مصر في سبتمبر عـام ١٧٨٩ ويظهر ذلك من إحدى قصائده التي امتدح فيها اثنين من الشاميين المقيمين في مصر[٣]. وأقام في الديار المصرية فترة من الزمن، وكان مقيماً في «مصر القاهرة» عام ١٧٩٣[٤]، وربما عاد إلى لبنان في العام التالي بعد أن أسس علاقات طيبة بأوساط الشوام المهاجرين إلى مصر من التجار وكتـاب الدواوين

(١) ديوان المعلم نقولا الترك، منشورات الجامعة اللبنانية — قسم الدراسات الأدبية / ٤، ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرام البستاني، الجزء الأول (بيروت، ١٩٧٠)، ص١

(٢) «كان جرجس باز قد تناهى في الجبر ولم عاد حسب إلى أحد حساب وأودا به الغرور إلى أفعال اشيا كثيرة في البلاد من دون شور الأمير بشير وخاطره، وكان كثير التقلب عديماً لحفظ السر يبرز منه كلام على من هو اكبر منه»؛ انظر حيدر أحمد الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، منشورات الجامعة اللبنانية — قسم الدراسات التاريخيـة/ ١٧، القسم الثاني، لشر وتعليق أسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت، ١٩٦٩)، ص ٥١٣ — ٥١٤.

(٣) ديوان المعلم نقولا الترك، ج ١، ص ٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٧.

المنتمين إلى طائفة الروم الكاثوليك مثله[1]. ويتضح من هذا أن نقولا الترك كان على معرفة ودراية بشؤون مصر وامكانياتها الحربية والاقتصادية، وهذا ما دفع الأمير بشير الشهابي إلى ايفاده إلى مصر لمراقبة الحالة العامة إبان الاحتلال الفرنسي لها وإطلاعه على اخبارها وما ترمي إليه أطماع الفرنسيين. ويذكر دي فوربن أن حملة بونابرت على مصر كان من شأنها أن يتجاوز تأثيرها تلك الحدود إلى الأراضي المقدسة، بل إلى لبنان نفسه، وان «الستين ألفاً من الدروز» الذين كانوا ينتظرون سقوط عكا لينضموا إلى الجيش الفرنسي ما كانوا ليتورطوا في هذه المغامرة إلا بعد أن يعرف أميرهم بشير الثاني، حق المعرفة، مقدرات هذا الجيش وإمكانيات المقاومة في الحامية المصرية[2]. ويقول الكسندر كردان في هذا الصدد أيضاً: «كان في استطاعة الحملة الفرنسية أن تترك أثراً ظاهراً في حياة الدروز الذين يزعمون أنهم منحدرون من أصل فرنسي. فكان من الأهمية الكبرى لدى زعيم هذه الأمة الحربية [أي الأمير بشير الثاني]، أن يقف على كل صغيرة وكبيرة تتصل بحوادث مصر. وعلى ذلك أصدر أمره إلى المعلم نقولا بالتوجه إلى دمياط والإقامة فيها، وهي أفضل بقعة لمراقبة الحوادث بين مصر وسوريا[3]». وكانت رسائل نقولا الترك إلى الأمير

(١) المصدر السابق، ص ٢٠ – ٢٤.

(٢) انظر: De Forbin, *Voyage dans le Levant*, Paris, 1819.

(٣) A. Cardin, *Expédition française en Egypte, par Mou'allem Nicolas El-Turki*, Paris, 1838, p. 2.

حاول كردان الربط بين الزعم القائل بأن الدروز ينحدرون من أصل فرنسي وبين إيفاد نقولا الترك في مهمة خاصة إلى مصر. وكان قد أشيع عن الدروز أنهم ينتسبون إلى القائد الفرنسي الصليبي دروز Dreux. وقد ذكر هذا الرأي كثير من الكتاب الفرنجة منهم: الأب أوجين روجيه الفرنسيسكاني في تاريخه «الأرض المقدسة»، والكاتب الروسي باسيلي في كتابه «سورية وفلسطين»، ورستل هيبر في كتابه «التقاليد». وتطرق هذا الاعتقاد إلى كثير من المؤرخين العرب مثل جورجي يني في «تاريخ سورية» وجورجي زيدان في الهلال. ولكن المسيو بيجيه دي سان بيير (Puget de St. Pierre) فند هذا الزعم في كتابه (تاريخ الدروز في لبنان) وأثبت أن المعنيين عرب. (انظر: عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت، ١٩٦٦، حاشية ٢ ص ٣٤ – ٣٥).

بشير الثاني تمر، في طريقها إلى لبنان، بمنطقة أحمد باشا الجزار، مما عرّض حامليها للخطر. ويذكر كردان أن إحدى تلك الرسائل وقعت في يد الجزار مما أدى إلى نزول الكوارث بأحد إخوة المعلم نقولا القاطنين في عكا.

ولم يغادر نقولا الترك مصر مع رجال الحملة كما اعتقد البعض، بل ظل مقيماً بها حتى عام ١٨٠٤ حين غادرها عائداً إلى دير القمر حيث استأنف التدريس وقرض الشعر من جديد. وانصرف حتى وفاته عام ١٨٢٨ إلى وصف عصره وبيئته، وأصبح ديوانه من المصادر المهمة التي لا يستغنى عنها في تاريخ الحقبة الممتدة من عام ١٧٩٠ إلى عام ١٨٢٥. ويعتبر هذا الديوان صورة صادقة لحياة الشاعر مثل أسفاره بين مصر ولبنان، وإقامته في دير القمر، وتنقلاته في المدن والقرى اللبنانية، وزياراته للأمير بشير[1]. وفي أواخر أيامه، فقد نقولا الترك بصره، وكانت ابنته الشاعرة وردة تكتب ما يمليه عليها من أشعاره[2]. ولقد استطاع نقولا الترك — خلال السنوات الثلاث التي قضاها في مصر لمراقبة الجيش الفرنسي وتحركاته — ان يجمع المعلومات والملاحظات التي كوّنت كتابه الضخم عن الحملة الفرنسية. وقد ظهرت أول طبعة لكتاب نقولا الترك في عام ١٨٣٨ في باريس، وهي عبارة عن ترجمة فرنسية قصيرة لتسع وستين صفحة قام بها الكسندر كردان ونشرها في ذيل ترجمته لكتاب الجبرتي (Journal d'Abdurrahman Gabarti)[3]. وفي العام التالي نشر قسماً من هذا الكتاب في باريس، مع ترجمته الفرنسية، المستشرق الفرنسي ديجرانج أنيه[4]. وكان ديجرانج قد قابل نقولا الترك

(١) ديوان المعلم نقولا الترك، ج ١، المقدمة ص د — و.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف: «تواريخ الامبراطور نابوليون بونابرت باللغة العربية ولا سيا تاريخ نقولا الترك اللبناني منها»، مجلة المشرق، ٢٩ / ١٩٣١، ص ٢٨٨.

(٣) A. Cardin, *op. cit.*

(٤) *Histoire de l'expédition des Français en Egypte. Par Nakoula El-Turk,* Publiée et traduite Par M. Desgranges Aine, Secrétaire interprète du Roi. Paris. Imprimée par autorisation du Roi à l'Imprimerie Royale, M DCCC XXXIX.

في دير القمر وتعرف به . كما نقل هذا الكتاب نقلاً يكاد يكون حرفياً الأمير حيدر أحمد شهاب (١٧٦٣ — ١٨٣٥) في تاريخه المشهور « الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان »[١]. وعنوان كتاب نقولا الترك الذي نقله حيدر في تاريخه — وهو « ذكر ما حدث إلى الفرنساوية من الانشقاق والنفاق والخصام وخروجهم إلى الديار المصرية وما تم لهم بتلك الأمصار. بنوع الاختصار . والحمد لله العلي الجبار الذي أراح منهم هذه الديار » — يختلف عن عنوان النسخة التي نشرها ديجرانج وهو « ذكر تملك جمهور الفرنسية الأقطار المصرية والبلاد الشامية »[٢]. وفي عام ١٩٤٨ اقتنت مكتبة الملك السابق فاروق من إحدى مكتبات القاهرة مخطوطاً يقع في ٢٥٩ صفحة ، وقد جاء غفلاً من العنوان واسم المؤلف ، وهو منسوخ بخط غير متغير ، فيما خلا بضع صفحات في آخره لم تلق العناية الكافية في نسخها . وبعد أن تحقق جاستون ڤييت — في ضوء ترجمة كردان — من أن المخطوط هو نفسه تاريخ نقولا الترك ، قام بنشره وترجمته إلى الفرنسية والتعليق عليه ؛ وطبعه المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في عام ١٩٥٠ تحت عنوان « مذكرات نقولا ترك »[٣]. وهي طبعة أوفى من طبعة ديجرانج ، إذ تنتهي حوادثها إلى أغسطس عام ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات حكم محمد علي . وقد عزز جاستون ڤييت الترجمة بشروح وافية لكثير من الكلمات الأجنبية — من تركية وفارسية وإيطالية وفرنسية — جرى كتّاب ذلك العصر على استعمالها .

ويرى البعض أن نقولا الترك كان واضح الميل بل التعصب للفرنسيين

(١) George M. Haddad, The Historical work of Niqula El-Turk 1763 - 1828, *Journal of the American Oriental Society*, vol. 81, No. 3 (Aug. Sept. 1961), pp. 247 - 251.

(٢) انظر : طبعة أسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت، ١٩٦٩)، القسم الثاني، ص ٢١٣ / ٣٤ .

(٣) Nicolas Turc, *Chronique D'Égypte 1798 - 1804,* éditée et traduite par Gaston Wiet (Le Caire, 1950).

وسنعتمد في بحثنا هذا على هذا الكتاب وسوف نشير إليه في الحواشي بعنوان «مذكرات نقولا ترك» . ولن نعلق على الأخطاء النحوية أو اللغوية التي لا تخفى على القارىء .

لما له من شعر في مدح نابليون ورثاء الجنرال كليبر . ولذلك يقول محمود الشرقاوي إن « لشهادته ... قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ، واستبسالهم في هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهين عليه الاعتراف بها »[١]. ويقول جبرييل جيمار أيضاً : « إن كاتم سر الأمير بشير أو بالأحرى جاسوسه صاحب الشعر الغنائي في بونابرت ، كان ككثير من أهل المشرق في ذلك الوقت ، يميل إلى الفرنسيين »[٢]. وفي الواقع ، اتصل نقولا الترك بالفرنسيين مثل غيره من المسيحيين الشوام وترجم لهم[٣]، وهذا ما دفع الكثيرين إلى الاعتقاد بتعصبه لهم وتعاطفه معهم . وكان عدد كبير من « الشوام » المسيحيين قد نزح إلى مصر في أوائل القرن الثامن عشر ، واستقر في المدن المصرية الكبرى ذات الصدارة في المجالين التجاري والصناعي مثل القاهرة ، ودمياط ، والاسكندرية . وتتابعت هجرة مسيحيي الشام إلى مصر بعد أن وصلت أخبار نجاح المهاجرين إلى إخوانهم في سوريا ولبنان ، وطغوا على طائفتي اليهود والأقباط اللتين كان لهما احتكار الوظائف المالية في مصر منذ عهد طويل[٤]. وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، استعان الفرنسيون بمن فيها من مسيحيين وخاصة السوريين لمعرفتهم باللغة العربية ، وباللغتين الفرنسية والإيطالية ولاتفاق الطائفتين في اعتناق دين واحد ، ومذهب واحد[٥]. ولما غادرت الحملة مصر ، تركها « جماعة كثيرة من القبط .... والمترجمين .... وكثير من

---

(١) محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء الثالث (القاهرة ، ١٩٥٦) ، حاشية ١ ص ٤٠ .

(٢) G. Guémard, ***Histoire et bibliographie critique de la Commission de sciences et arts et de l'Institut d'Égypte*** (Le Caire, 1936), pp. 111-112.

(٣) عيسى اسكندر المعلوف : « تواريخ الامبراطور نابوليون بونابرت باللغة العربية العربية » ، المشرق ، ٢٩ / ١٩٣١ ، ص ٢٨٧ .

(٤) بولس قرألي : السوريون في مصر ، الجزء الأول (مصر ، ١٩٢٨) ، ص ٨٢ — ٨٥ ؛ عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ؛ انظر أيضاً : مذكرات نقولا ترك ، ص ٣٣ — ٣٥ ، ٦٢ — ٦٣ .

(٥) بولس قرألي : المرجع السابق ، ج ١ ص ٩٠ ؛ عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ؛ مذكرات نقولا ترك ، ص ٣٣ — ٣٥ ، ٦٢ — ٦٣ .

نصارى الشوام والأروام ..»[١]، وكان من بينهم القس جبرائيل الطويل الذي عـيّن فيما بعد أستاذاً للغة العربية في مدرسـة اللغات الشرقية في باريس[٢]. ولقد ظن البعض أن نقولا الترك غادر مصر أيضاً مع رجال الحملة، بيد أنّ هذا الظن يفتقر إلى دليل مادي. ومن المنطقي أن يتعاطف نقولا الترك مع الفرنسيين كغيره من بقية «الشوام» المقيمين في مصر[٣]، ولكن ذلك لم يؤثر على الآراء والملاحظات التي دونها في تاريخه. وكل ما طبع من شعره الغنائي في بونابرت لم يكن سوى قصيدة واحدة أملتها الظروف. وقد نشرت هذه القصيدة وترجمت في الكتاب الذي أصدره ديجرانج، ومطلعها[٤]:

لله عصر قد زهـا — فلك السعادة فيه دار
وجمال كوكب دولة الـ — جيش الفرنساوي أنار
يا حسنها من دولـة — بالافتخار لها اشتهار
مقدامهـا ذو سطوة — تهدي الملوك له الوقار
الشهـم بونابارتـة — ليث الوغا والاقتدار
من فاق قدراً وارتقى — أوج العلا وسماء الفخار
ندب توحـد بالورى — بشهامـة ذات اعتبـار
قهـر الممالك جمّـة — وغزا البلاد مع الديار
وأتا لنـا بجحافـل — ومراكب طوت البحار
وتملّك الاسكندريـ — ـة بسرعة دون اعتبار

(١) عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٨٧.
(٢) قسطنطين الباشا: محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر (ألقاهـا في النادي الكاثوليكي في القاهرة في ٢٧ شباط ١٩٣٠)، حريصا، ١٩٣٠، ص ٣٩.
(٣) بعد أن ترك الترك مصر بعدة أعوام بلغه أن «أحد أحبابه المدعو باسيلي فخر قنصل دولة فرنسة ووكيل غيرها من الدول» قد اشترى قصراً في مدينة دمياط، فأهداه أبياتاً من الشعر استعاد فيها ذكرى الليالي الخوالي على ضفاف النيل. (انظر: ديوان نقولا الترك، ج ١، ص ١١٨).
(٤) Desgranges, *Histoire de l'expédition des français en Égypte*, pp. 281 - 282 ; ديوان نقولا الترك، ج ١، ص ١٨٠ – ١٨٢.

وملأ الأراضي عسكراً — حول الكنانة واستدار
من كلّ صنديـــد فتى — يوم القتال له اصطبار
صفّ الصفوف بحكمة — وفنون حرب واختبار
وسطى بشدّة عزمـــه — وعلى جيوش الغز غار
وأراهم خطباً شديـــ — ـد الهول فيه العقل حار
وأثار نار الحـــرب في — يوم تشيب به الصغار
يوم يقـــال بـــه له — لله درّك من نهـــار
فهناك جيش الغز قـد — صـاح الهزيمة والفرار
وراوا المنية فوقهـــم — قد أمطرت جمرات نار
ذو البطش منهم والفتى — طلب النجا وبه استجار
وتبدّدت تلك الجمـــا — هير العديدة في القفار
وتشتّتت أمراءهـــا — وغدت بذل وانكسار
وفتـــوح مصر كان في — صفر وأمر الله صـار
في يوم سبت فيه قـد — ارّخت تمّ الانتصار

حقيقة أن هذه القصيدة توحي بميـــل نقولا الترك إلى محاباة الفرنسيين ، ولكننا إذا أمعنا النظر في كتابه يظهر لنا عكس ما يقصده البعض . فقد أعجب نقولا الترك بالشجاعة الحربية في أي معسكر كانت ، فأشاد بذكرها عند الفرنسيين، كما نوه بها لدى المماليك. وما نستطيع أن نوضحه في هذا المجال أن نقولا الترك كان يبغض الأتراك[١] .

وقد اتبع نقولا الترك الطريقة التقليدية في كتابة تاريخه ، إذ أخضع تأريخه للأحداث لطريقة اليوميات والحوليات. ومما أضفى على كتابه قيمة تاريخية أنه كان على اتصال بكبار القوم ، من وطنيين وأجانب ، حكاماً وولاة وموظفين وتجاراً، ووقف على أحوالهم وأعمالهم وأرّخ أهم أحداثهم. ورغم أنه اقتصر في تاريخه على تسجيل الأحداث ولم يتعدّ ذلك إلى التعليل

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ح من المقدمة .

والنقد، فإنه امتاز بدقة في النظر، وصوابٍ في الحكم، وتحرٍّ لبعض المعلومات، ولباقةٍ في الوصف أعجب بها ديجرانج فنسبها إلى الفن[1]، وربما لا تبعد كثيراً عما كان يقرأه نقولا الترك في « سيرة عنترة ». ولكنه كتب تاريخه بلغة عامية ذات عبارات ركيكة، وشط في أسلوبه عن قواعد النحو والصرف، واهتم فقط بتحقيق الفكرة التي يرمي إليها في تاريخه بجمل مسجوعة. وهكذا يبدو الفرق الكبير بين أسلوب نقولا الترك ومعاصره الجبرتي، فرغم ما شاب أسلوب الجبرتي أيضاً من ضعف وتقصير وأخطاء إلا أنه أفضل بكثير من أسلوب نقولا الترك الذي لم يلتزم إطلاقاً بقواعد النحو والصرف والإملاء. والجبرتي، على أية حال، قد تتلمذ في الأزهر، وتلقى العلم على يد نخبة من علمائه الكبار في ذلك الوقت ثم أصبح عالماً من علمائه. وليس من المستبعد أن يكون الجبرتي – كما وضحنا من قبل – قد مات عن مسودات كتاب لم يطل به العمر لتنقيحها وتهذيبها[2]. أما نقولا الترك فيبدو أن أسلوبه كان ضعيفاً وركيكاً بطبيعته، ويظهر هذا جلياً في ديوان شعره الذي لم يسم في شيء فوق آثار التقليد النظمي المتتابع في عصور الانحطاط، بل كان يقل عنها في قوة السبك وشدة الضبط. وبذلك يبدو أن « لغة العرب لم تعنُ تماماً لحفيد اليونان. فظلّ شاهد عصر جليل، دقيق النظر، مرهف الشعور، صائب القياس، بصير الحكم، ولكنه سيء التعبير»[3].

وإذا كان الجبرتي قد كتب بهدف « التنصح ... والوقوف على تقلبات الزمن »[4]، فإن نقولا الترك دوّن تاريخه أيضاً بهدف انتفاع الطلاب، فهو يحدد هدفه ومنهجه في مقدمة كتابه في قوله :

« ... قد جرت عادة الأوايل، بتأليف الكتب والرسايل؛ وتاريخ ذكر ما يمر عليهم من الحوادث الكونيه، والحركات

(١) Desgranges, *op. cit.*, p. VII.
(٢) انظر ما جاء هنا من قبل : ص ١٦
(٣) ديوان نقولا الترك، ج ١، ص ي.
(٤) عجائب الآثار، ج ١، ص ٣.

الكليه ؛ كقيام دولة على دوله ، واشتهار الحروب المهوله ؛ وما يتعلق بها من المواقع المريعه ، والامور الفظيعه ؛ فحق لنا ان نذكر في هذا الكتاب ، لانتفاع الطلاب ؛ ذكر ما اجرته يد الاقدام ، بهذه الامصار ؛ منذ اذ بدت العزه الالهيه ، بظهور المشيخه الفرنساويه ، وما تاتى بسببها من الفتن في البلاد الافرنجيه ؛ حتى عمت ساير الأقطار ، وشملت كامل الامصار ؛ وقتل سلطانهم ، وخراب بلدانهم ؛ وانتشار شانهم ، وربحهم بعد خصرانهم ؛ وذلك بظهور فرد أفرادهم ، وقايد اجنادهم ؛ البطـــل الصنديد ، ذو البطش الشديد ؛ الأمير بونابرته . وذكر الحروب التي ثارت في تلك الممالك ، ووقوع الشر والمهالك ؛ وقهر تلك البلاد التي اتصلوا اليها ، والانتصارات العظيمة التي حصلوا عليها ؛ وانتقالهم العجيب من الغرب إلى الشرق ، مرور اسرع من الـبرق ؛ ونزولهم عـــلى جزيرة مالطا ، كالصواعق الساقطه ؛ وتوجههم ثغر الاسكندريه ، واستيلايهم على الأقطار المصريه ، والتخبير عما وقع لهم من التمليك ، وحروبهم مـــع دولة الغز المماليك ؛ وركوبهم على الأقطار الشامية ، وحصارهم لمدينة عكا القويه ؛ ورجوعهم إلى أرض مصر ، وجميع مـــا تم لهم في ذلك العصر ؛ وحروبهم مع الدولتين العظيمتين الدولة العثمانيه ، والدولة الانكليزيه ؛ وملاقاتهم للعساكر البحريه والبريـه ، ومصادماتهم مع التجاريد الهمايونيه الخنكاريه ، وخروجهم من مصر القاهره بالتسلـيم ، من بعد حروب وافره وهول عظيم ؛ من بعد مكثهم بالكنانه ثلثة أعوام بالتمام ابتداوها شهر محرم سنة ١٢١٣ واخرهـا شهر صفر سنة ١٢١٦ ؛ وكانت ترا اعجب العجايب ، وأغرب الغرايب ، وفي هذا الكتاب أيضا ذكر دخول الدولة العثمانيه ، من بعد خروج الدوله الفرنساويه ، وذكر ما تم لهم مع دولة الغز المحمديه ؛

وذلك من بعـــد تملكهم دار الكنانه ، فتقول وبالله القوة والاستعانة ..... »[1].

وبدأ نقولا الترك مذكراته عن الحملة الفرنسية بلمحـــة سريعة عن التطورات التي حدثت في فرنسا من الثورة إلى قيام الحملة . ونستدل من هذا على أن نقولا الترك كان ملماً بتاريخ الثورة الفرنسية ومغزاها ؛ فهو يشير إلى ثورة الشعب الفرنسي على الملك لويس السادس عشر والنظـــام القديم ، ومحاولة هروب الملك إلى النمسا ، وانتهـــاء تلك المحاولة بالفشل وإعدام الملك هو وزوجته . ولا تقتصر رواية نقولا الترك على هذا الحد، بل إنه يتطرق إلى الحديث عن موقف الدول الأوروبية من الثورة الفرنسية وتكوين التحالفات الدولية ضدها ؛ فيذكر أن ملوك أوروبا « قامت كلها على ســـاق وقدم ، وقالوا لانفسهم نحارب هذا الشعب الهايج العاصي ، ونبيد ذكره من العالم ، لكي لا تتشبه بـه باقي شعوب الممالك ، ويقوموا على ملوكهم ويقتلوهم ، ويخرجوا نظـــير هؤلاء الخارجين ، فبدوا الملوك يجيشوا عليهم . فاول من تحرك لقتالهم الانبراطور ملك النمسا ، ومملكة اسبانيا ، والانـكليز ، والفلمنك ، وباقي سلاطين بلاد ايطاليا ، وبالجملة كامل بـــلاد أوروبا قامت ضدهم ، وتعرت مشيخة فرانسا من صحبة وصداقة كامل البلاد الافرنجية »[2]. ثم تعرض نقولا الترك بعد ذلك إلى انتصارات الفرنسيين و« سارى عسكرهم الكبير بونابرته » في ايطاليا حتى تم إعداد الحملة الفرنسية وإقلاعها من طولون إلى الاسكندرية والأقطـــار المصرية . وهكذا قدم نقولا الترك للحملة الفرنسية بمعلومات عن البلاد التي خرجت منها وخط سيرها ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على أسباب الثورة الفرنسية وأهدافها ومبادئها .

ويختلف نقولا الترك في ذلك عن معاصره عبد الرحمن الجبرتي، الذي يبدو أن معلوماته عن الثورة الفرنسية وتطوراتهـــا كانت منعدمة . فقد

---

(١) مذكرت نقولا ترك ، ص ١ — ٢ .　　(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٤ — ٥ .

استهل عبد الرحمن الجبرتي روايته عن سنة ١٢١٣ هـ – وهي سنة نزول الحملة أرض مصر – بقوله : « وهي أوّل سني الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمه ؛ والوقائع النازله ، والنوازل الهائله ؛ وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ؛ وتوالي المحن ، واختلال الزمن ؛ وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ؛ وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ؛ وفساد التدبير ، وحصول التدمير ؛ وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ؛ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[١]. ونستشف من ذلك أن الجبرتي لم تكن لديه – مثل معاصره نقولا الترك – صورة واضحة عن أحوال أوروبا السياسية والحضارية في تلك الفترة ؛ فهو لم يتبين ما وراء الغزو الفرنسي من أهداف سياسية واقتصادية ، واقتصر تعليله على أنه فتح ديني قام به النصارى ، وهو يعبر بذلك عن رأيه ورأي معاصريه من المسلمين ، الذين كانوا يرون أنه إذا انهزمت جيوش السلطان واستباح جند النصارى أرضه فقد اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها . ولذلك نظر الجبرتي إلى خضوع المصريين المسلمين للحكم الفرنسي على أنه شر لا يوازيه عسف ابراهيم بك أو ظلم مراد بك ، أو شرور المماليك والعثمانيين مجتمعة . وقال المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال – في تفسيره لهذا الأمر – أن الحكم الفرنسي « كان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون ، إذ لما زال حكم مراد وابراهيم حل محلها بونابرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكاً ، ومهما قيل في تدين الفرنسيين في تلك الأيام فهم غير مسلمين ، قد تصل بهم الضرورة الحربية – أو ما ظنوه ضرورة حربية – إلى انتهاك الحرمات الإسلامية »[٢]. ولذلك جاءت مقدمة الجبرتي عن الحملة الفرنسية تعبيراً لمفهوم هذا العصر عن حقيقة الصراع بين الشرق والغرب ، وهو أمر يختلف فيه تماماً مع نقولا الترك .

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢ . وآخر ما جاء بالنص استشهاد من سورة هود ، الآية رقم (١١٧) .

(٢) انظر : محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

ومن خلال سردهما لأحداث الحملة الفرنسية ، تعرض الجبرتي ونقولا الترك لأهم تطوراتها ولسياسة نابليون بونابرت الإسلامية وموقف المجتمع الشرقي الإسلامي من التقاليد والعادات الغربية ، فاتفقت وجهة نظرهما إلى حد كبير . فقد تطرق الاثنان – مثلاً – إلى الروح الاسلامية السائدة في ذلك الوقت وإلى العازل الديني الذي كان يفصل بين الشعب المصري وبين الحكم الفرنسي . ورغم أن نقولا الترك كان مسيحياً كاثوليكياً إلّا أنه أكد – مثل الجبرتي – أهمية هذا العازل وأثره في قيام ثورة القاهرة الأولى . ويشير نقولا الترك إلى هذه الروح الإسلامية عندما يتحدث عن هزيمة القوات العثمانية في موقعة أبي قير البرية (٢٥ يوليو عام ١٧٩٩) فيقول :

« إن العساكر الفرنساوية رجعت إلى مصر بنصر عظيم ، ورجع أمير الجيوش وصحبته مصطفى باشا كوسا مع ابنه وبعض اتباعه ، وحصل قهراً عظيماً عن ذلك عند المصريين بانكسار هذه العمارة .

فعرف ذلك أمير الجيوش بونابرته ، وحين دخلت العلما عليه لكي يهنوه بقدومه .

فقال لهم ، كنت أظنكم أيها المصريون انكم تحبوني ، وتفرحوا بنصرتي ، وتحزنوا لحزني ، والآن رايتكم بضد ذلك ، فأنا قدمت لكم كل محبة ، وقلت لكم انني أنا احب النبي محمد ، وذلك لكون انه بطل صنديد نظيري ، وصاحب فتوحات ، فذاك غزى عشرون غزوة ، وأما أنا غزوت ، وأمامي غزوات كثيرة ، وسوف تشاهدوا وتسمعوا ، والان انتم متضجرين من الفرنساوية ومقهورين ، فسوف ياتيكم زمان الذي به تفتشون على عظام الفرنساوية .

وتبكون عليها ، ومثل هذا الكلام وغيره كلمهم به عدة أمرار . وكان في مده اقامته في مصر دايما يكلمهم

بالسان ، ويكتب لهم أوراق ، ويعلقها على حيطان المدينة بالأسواق، لكي يقراها الشارد والوارد، وكان يوعدهم بالاسلام، وبناية جامع باسمه ، وبكل خير يتعلق بالامة الاسلامية . وأما هم فكانت قلوبهم غير امنه ولا مطمانه، وكانوا يقولوا كل هذا خداع ومخاتله لبينما يتملك ، وأمـــا هو نصراني ابن نصراني »[1].

وتعبّر هذه الفقرة التي سجلها نقولا الترك بشكل واضح عن نظرة المجتمع المصري الديني إلى بونابرت، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبي ابن أوروبي ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسي ابن فرنسي ، بل اتخذوا من الدين معياراً لتقييمه . ويؤكد نقولا الترك في أماكن متفرقة من مذكراته ، أنه كان يحز في نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبي مسيحي ، لأن مصر بلد إسلامي منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنها ظلت على هذا الوضع الإسلامي على توالي الأدهر والعصور ، كما أن « هـذا الأمر يصعب على أهل مدينة مثل هذه لها في يد الإسلام من ظهور النبي ، وفي القديم قصدوا النصارى الافرنج الاستيلا عليها جملة أمرار ، فما قدروا وآخرهم السلطان لويس الفرنساوي الذي انكسر في المنصورة ، كما تخبر التواريخ. فلهذا السبب صعب جداً دخول الافرنج على المصريين إلى هذه الديار..»[2]. وهكذا كان الشعب المصري يردد أن بلاده كانت حصناً حصيناً للإسلام، ومركزاً مرموقاً للثقافة الدينية العلمية الإسلامية . ويخلص نقولا الترك من وصف مشاعر المصريين إلى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين للحكم الفرنسي إنما هو أمر ضد الطبيعة .

ولقد أشار الجبرتي إلى الروح الإسلامية التي تمثلت بشكل قوي في ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) والتي يحلو لبعض الباحثين المحدثين

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٥٩ — ٦٠ . (٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣٠ - ٣١ .

إضفاء الطابع القومي عليها . ولا يغيب عن الذهن في هذا المجال أن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر كان مجتمعاً دينياً خالصاً غلبت عليه الثقافة والآراء الدينية ، فكانت الهتافات التي رددها الثوار هتافات دينية بحتة ، لا تمت بأية صلة إلى الشعارات أو المفاهيم القومية . ويصوّر الجبرتي الموقف عند بداية ثورة القاهرة فيقول : « وأصبحوا [أي العامة] يوم الأحد متحزبين، وعلى الجهاد عازمين؛ وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينيه، وزُعّر[1] الحارات البرانيه ؛ ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ؛ ويقولون بصياح في الكلام : نصرالله دين الإسلام »[2]. وتتفق رواية الجبرتي مع رواية نقولا الترك في تأكيد هذا الشعور الإسلامي، فيقول الترك في مذكراته عن بداية الثورة : « وأهل مصر حين نظروا أن أهل المنصوره قاموا ضد الفرنساوية ، وقتلوا الذين كانوا عندهم ، ولا جرى عليهم خلاف ، وكذلك اهل اقليم دمياط ، ولا جرى عليهم شيء ، فدبروا أهل مصر هذا التدبير الآتي ذكره ، وهو انه في ذات يوم نهار الأحد ، في عشرين ربيع آخر، نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر ، وبدا ينادي في المدينة ، ان كل مومن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لان اليوم ينبغي لنا أن نغازي في الكفار، وكان اغلب أهل البلد معهم الاس بذلك »[3]. ومن الجدير بالذكر أن نقولا الترك لم يتحرج عندما أطلق لفظة « الكفار» على الفرنسيين ، فلقد كان يصف مشاعر الناس وأحاسيسهم وصفاً دقيقاً، كما كان مدركاً أن مصر كانت جزءاً من أرض السلطان ، زعيم الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت .

---

(١) يعني أناساً ذوي شراسة ، والمفرد (زُعْرُور) أي سيء الخلق كما جاء في الفيروزابادي (مجد الدين) ؛ القاموس المحيط مادة (زَعِرَ) ، الطبعة الخامسة ، شركة فن الطباعة ، القاهرة بدون تاريخ ؛ وانظر أيضاً : Dozy, R., Supplément aux dictionnaires Arabes, 3ème edition, I, 592, Leyde, Paris ؛ فقد فسر الزاعر ـ أو الزعرور ـ بمعنى الخسيس الدنيء (vaurien) أو الشاطر أي الخبيث الفاجر (filou) .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٥ . (٣) مذكرت نقولا ترك ، ص ٢٨ .

ويستخلص الباحث من روايتي الجبرتي ونقولا الترك ثلاث اتجاهات حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولاً : إن الدعوة إلى الاشتراك في الثورة كانت مقصورة على « المؤمنين الموحدين بالله » وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة دون سواهم .

ثانياً : إن الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الإسلامية تتلقى فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو الذخائر من قادة الثورة .

ثالثاً : ان الحرب التي خاضها أهل القاهرة المسلمون ، كانت حرب جهاد ديني ، استهدفت الانتصار لدين الاسلام ، ولم يطلق فيها الثوار الهتافات التي عرفتها مصر في القرن العشرين ؛ فلم يهتفوا بالاستقلال أو بحياة زعيم الثورة ، لأن أي زعيم مصري مهما بلغت مكانته ومهابته ونفوذه في نفوس المصريين، كان يتضاءل مركزه إذا قورن بسلطان الدولة العثمانية، على أساس أنه سلطان المسلمين . ويؤكد هذه الحقيقة اثنان من المؤرخين الذين عرف عنهم سلامة الحكم والتقدير ؛ فيقول الأستاذ محمد شفيق غربال : « إن التاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم، إلّا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس ، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً ، وإنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية »[1].
أما الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، فهو يقول عن ثورة القاهرة الأولى : « ظل الفرنسيون يحكمون البلاد نحو ثلاث سنين ، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه في الدين ، ويخالفونه في اللغة ، ويخالفونه في الحياة الاجتماعية التي يحياها : رآهم يحتمون عليه أموراً لم يألفها »[2].
وهكذا أدت عوامل كثيرة إلى قيام الثورة ضد الفرنسيين ، وإلى زيادة الهوة بينهم وبين المصريين من بينها اختلاف الدين والزي واللغة والتقاليد.
وقد عبر الجبرتي ونقولا الترك عن هذه العوامل مجتمعة بعبارات تتسم بالوضوح والدقة .

---

(١) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ١٥ .
(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢١ .

ولم يقف الجبرتي ونقولا الترك عند موضوع الجهـــاد الديني والروح الإسلامية المنتشرة في ذلك الوقت فحسب ، بل تعرضا لمشكلة أخرى هامة ظهرت إبّان الاحتلال الفرنسي لمصر ، وهي مشكلة التحرر النسائي. فلقد انتشر أثناء الحكم الفرنسي نوع من التحرر النسائي لم يتقبله مجتمع القاهرة ، بل نظر إليه على أنه إباحية وفوضى خلقية لا تتمشى مع التقاليد الإسلامية ، التي كان الحـكم العثماني يحرص على احترامهـا حرصاً بالغاً . فقد اصطحب بعض الضبـاط الفرنسيين زوجاتهم أو عشيقاتهم إلى مصر ، ويقدر بعض المؤرخين عددهن بثلاثمائة سيدة تقريباً [1]. وقد عاشت تلك الزوجات أو العشيقات في مصر حياة متحررة من قيود مجتمع شرقي إسلامي محافظ ، وكن يشبعن ما كانت تهفو إليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف. وكتب الجبرتي عن الحرية التي مارستها السيدات الفرنسيات في شوارع القاهرة ، وعن ملابسهن ، وعن مداعبتهن للعامة وهن يركبن الحمير؛ فراح يقول : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن عـــلى مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ... » [2]. وبالإضافة إلى هذا ، كانت السيدات الفرنسيات يراقصن الرجال في ميدان الأزبكية في أثناء المهرجان الكبير الذي أقامه الجيش احتفالاً بذكرى قيام الجمهورية .

أما العنصر الثاني مـــن النساء المتحررات في مصر فكان يتمثل في السيدات الشركسيات واليونانيات والأرمنيات ومن إليهن ، وقد كن زوجـات أو مستولدات أو جواري للأمراء المماليك والكُشّاف ، جيء

(١) محمد فؤاد شكري : عبدالله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥٧٢ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

بهن إلى مصر وأقمن في قصور كانت غاية في الروعة والبهاء ، وعشن حياة مترفة ناعمة باذخة ، وارتدين أرقى أنواع الملابس الحريرية المستوردة من مصانع ليون ، والملابس الصوفية وغيرها ، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن في المعارك التي خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين ، وارتفع عدد القتلى منهم في معركة امبابة ، وتشتت شمل العائلات المملوكية ، وانطلقت السيدات إلى حياة التحرر ، بعد أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات ، لا يراهن أحد من الأفراد سوى الأغوات الطواشية الذين يقومون على خدمتهن . وقد عاشت تلك السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية مترفة منعمة ، وخرجن سافرات في صحبة أزواجهن، وكن يذهبن معهم إلى منتدى الجيش الفرنسي المسمى تيڤولي (Tivoli) [١] في ميدان الأزبكية وإلى غيره من أماكن اللهو والتسلية .

كما كانت الإماء (الجواري السود) عنصراً ثالثاً متحرراً إلى أبعد حدود التحرر في مدينة القاهرة ، وكن أيضاً يعشن في قصور الأمراء المماليك والكشاف ، وانطلقن من إسار الرق ، وكن أوفر عدداً ، وأكثر جرأة في تطوير أسلوب حياتهن . وقدم الفرنسيون لهن الملابس الأوروبية فارتدينها ، وقدموا لهن الخيول فركبنها ، وكن يغادرن منازلهن في أي وقت ، ويطفن بشوارع القاهرة ، سافرات الوجوه ، تبدو عليهن الأناقة في ملابسهن وزينتهن ومشيتهن وحركاتهن . ويصور نقولا الترك هذا الوضع تصويراً دقيقاً ؛ فيقول : « وفي خمسة وعشرين ربيع ، عمل لهم مولد النبي بشنك عظيم ، بزيادة عما كان يصير في مدة الغز . وكانت في كل مواسم الإسلام والأعياد والموالد وجبر بحر النيل ، تصنع الفرنساويه احتفالاً عظيماً ، وتضرب مدافع كثيره ، وحراقات عظيمة ، التي كانت تصير في مدة الاسلام ، وكل ذلك لكى يجذبوهم إلى محبتهم . وأما هم كما أشرنا سابق ، كانت قلوبهم نافرت منهم ، مع أن غالب الفرنساويه وأكثرهم

---

(١) ج . كريستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ .

كانوا أشهروا ذواتهم بالاسلام ، وبدوا يتعلموا العربية ، ويدرسوا الكتب والقران الشريف ، وكانت بيوتهم مشحونــة من بنات الاسلام ونسايهم ، لا سيما من الجواري البيض ، الذين كانوا في بيوت الغز المماليك . وامــا الجواري السود ، فكانوا بزياده ، وكانوا يلبسوهم كسم بلاد الافرنج ، ويركبوهم الخيل ويدوروا في المدينه مكشوفين الوجوه جهـاراً . وكانت حريت مطلقة إلى جنس النسا والبنات ، وخرجت النسا من بيوتهم خروجاً عظيماً لكون أن الجنس الفرنساوي له مداخله وموانسه ومسايره لجنس النسا بنوع آخر على باقي الجنوس الموجوده في العالم باسره »[١] . ويتفق الجبرتي في روايته عن الإماء مـع نقولا الترك إذ يقول « وأما الجواري السود فإنهن لمـا علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً ، فرادي وأزواجا ؛ فنطن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان ؛ ودلوهم على مخبآت أسيادهن ، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك »[٢] .

ثم جاء عنصر رابع هو زواج الفرنسيين من المصريين المسلمات . ويكشف الجبرتي عن التبرج والفساد ودوافع هذا الزواج في قوله :

« فلما وقعت الفتنــة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا مــا استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عنـدهم ، فزيوهن بزي نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن في كامـل الأحوال ، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية ، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حــل بأهل البلاد من الذل والهوان ، وسلب الأموال ، واجـتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم ، وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعـدم مخالفة

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٦٠ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ، ص ١٦٢ .

هواهن ، ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها ، فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن ، واختلسن عقولهن لميـــل النفوس إلى الشهوات ، وخصوصاً عقول القاصرات ، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم ، فيظهر حالة لعقــــد الاسلام ، وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها ، وصار مـــع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات ، متزيات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية ، والأحكام العادية ، والأمر والنهي والمناداة ، وتمشي المرأة بنفسها أو معهـــا بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها ، وأمامها القواسة والخدم ، وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين في الأحكام »[1] .

وهكذا نظر الجبرتي وسكان القاهرة إلى هذا الزواج المختلط ، وإلى تحرر المرأة المسلمة على أنها نوع من الرذيلة . وقد شاركهم نقولا الترك هـــذا الرأي ، فعبّر في مذكراته عن الاستياء الشديد الذي عم المصريين بسبب حياة الخلاعة في القاهرة ، وسمى أولئك المصريات « نساء كثيرات من الإسلام » ، وقال « خرجت النساء خروجاً شنيعاً مـــع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات والأشياء التي لا ترضى رب السموات »[2] . ويقول نقولا الترك في مجال آخر — وهو في هـــذا يتفق في الرأي مع الجبرتي — إن المصريين لم يحتملوا إطلاقاً وجود الفرنسيين في القاهرة « ولا سيما إذا كانوا يرو نساهم وبناتهم مكشوفين الوجود ، مملوكين من الافرنج ، جهاراً ماشيين معهم في الطريق ، نايمين قاعدين في بيوتهم ، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هـــذه المناظر ، وناهيك تلك الخمامير التي اشتهرت في كامل أسواق المدينه جهاراً ، حتى وفي بعض

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣١ .

الجوامع أيضاً ، هذا الرويا والمنظر كانت تجعل الاسلام يتنفسوا الصعداء ، ويطلبوا الموت في كل ساعة . ولكن في مـــدة الفرنساوية كانت الناس الدون في أحسن حال من بياعين ، وشيالين ، وأرباب صنايـع ، وحمير ، وسياس ، وقوادين ، ونسا خوارج . وبالنتيجة الاناس الادنيا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحريه ..... »(١)

وإذا كان هناك اتفاق في الرأي بين الجبرتي ونقولا الترك حول بعض القضايا الدينية والاجتماعية ، إلا أننا نجدهما يختلفان في تفسيرهما أو نظرتهما لبعض الأمور السياسية . ونسوق في هذا المجال مثلين للدلالة على الاختلاف في وجهات النظر بينهما ؛ يتعلق الأول بوساطة العلماء لدى نابليون أثناء ثورة القاهرة الأولى ؛ ويرتبط الثاني برأيهما في محمد علي . ففي خلال ثورة القاهرة ، تملكت نابليون بونابرت رغبة قوية في الانتقام من الجامع الأزهر ومن رجاله ومن يلوذ به ، فأصدر أمره في ٢٣ أكتوبر عام ١٧٩٨ بتحطيم بعض أعمدة الجامع الأزهر أثناء الليل في محاولة منه لهدمه . وقـد دفع بونابرت إلى اتخاذ مثل هـذا القرار ذلك الدور القيادي البارز الذي كان يضطلع به الأزهر في الحياة المصرية السياسية والدينية ، إذ كشفت هذه الثورة لنابليون مدى قدرة الأزهريين على تحريك الجماهير ثورياً ودينياً . إلا أننا نلاحظ أن الأزهر لم يتم هدمـــه ، ونلاحظ أيضاً أن المصادر الفرنسية والعربية قد التزمت الصمت إزاء هذا الأمر الحربي الذي أصدره نابليون بونابرت . ونرجح أنه راجع موقفه بعد أن هدأت هواجسه قليلاً ، بالإضافة إلى ما تجدد من عوامل خففت إلى حد ما من فورة غضبه ، منها سعي كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان إلى مقابلته في مقر قيادة الجيش الفرنسي .

وبعد أن سيطر الفرنسيون على الموقف في الأزهر ومنطقته ، استقبل بونابرت المشايخ أعضاء الديوان ، وألقى فيهم خطبة طويلة جمع فيها بين التقريع واللوم ، وإعلان الصفح عن سكان القاهرة ، وكان مما جاء في

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٣١ .

كلمته أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم قال : إنه يجب أن يعتقـــد أن أعضاء الديوان لم يشاركوا مشاركة فعالة في إشعال الثورة ، ثم مضى يقول لهم إن النبي ﷺ كان يمقت مقتاً شديـداً إثارة الفتن ونكران الجميل . وطلب منهم أن يذهبوا إلى الجامـع ويعملوا على تنظيفه . ورد إليهم المصاحف التي استولى عليها الفرنسيون وأعلن أنـه لا ينبغي الانتقام من سكان القاهرة . واستلم المشايخ المصاحف لإعادتها إلى الجامع الأزهر ، وحمـــل كل شيخ مجموعة منها ، وذهبوا إلى الجامع الأزهر ودخلته معهم الجماهير ، ورفعوا منه الجثث . وبعد أن تم تنظيفه صعد الشيخ عبدالله الشرقاوي المنـــبر وخطب في الجماهير ، ونقل إليهم تصريحات بونابرت ، وتتفق رواية بونابرت [1] في إطارها العام مع رواية عبد الرحمن الجبرتي ، إذ يقول الجبرتي :

« وأصبح يوم الأربع (الموافق ٢٤ أكتوبر عام ١٧٩٨) ، فركب فيه المشايخ أجمع ، وذهبوا إلى بيت صاري عسكر وقابلوه ، وخاطبوه في العفو ولاطفوه ؛ والتمسوا منه أماناً كافياً ، وعفواً ينادون بـــه باللغتين شافياً ؛ لتطمئن بذلك قلوب الرعيه ، ويسكن روعهم من هـذه الرزيه ؛ فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف ، وطالبهم بالتبيين والتعريف ؛ عمن تسبب من المتعممين في إثارة العوام ، وحرضهم على الخلاف والقيام ؛ فغالطوه عن تلك المقاصد ، فقال على لسان الترجمان : نحن نعرفهم بالواحد ؛ فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر بإخراجهم في الحال ؛ وأبقوا منهم السبعين ، أسكنوهم في الخطـــة كالضابطين ؛ ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام متقيدين » [2]

(١) Napoléon 1er : *Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798-1799.* Mémoires pour Servir à l'histoire de Napoléon dictées par lui-même à Sainte Hélène et publiées par le général Bertrand, Paris, 1847, T. 1, pp. 255 - 256.

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢٩ - ٣٠ .

أما نقولا الترك ، فيذكر رواية تتعارض مع ما جاء في كل من مذكرات بونابرت ويوميات الجبرتي ؛ فيقول عن وساطة العلماء :

« فقامت العلما ، وجات لعند أمير الجيوش ، ودخلوا على يديه ورجليه ، وترجوه أن يسمح لهم بقيام العسكر من الجامع المذكور ، فلم قبلت رجاواتهم ، ووبخهم التوبيخ الكلي ، فهم انكروا ان ليس عندهم علم ولا خبر بالذي حصل ، فما امكن ان يقبل رجاهم ، فراحوا وارسلوا له الشيخ محمد الجوهري ، فهذا الشيخ كان من العلما الكبار ، ولكن كان متعبد متوحد ، وفي كل حياته ما قابل احد من الحكام ، ولا يقبل رشوة ، ولا هدية من حاكم ، وفي مده الغز قط ما قابل احد منهم ، بل كانوا يطلبوا رضاه ودعاه وهو في بيته . فهذا الشيخ توجه بذاته وقابل امير الجيوش .

وقال له انا قط في حياتي ما ترجيت حاكم . ولا قابلت ظالم ، والان اتيت اليك ، فلاجل خاطري افرج عن الأزهر لكي ارضا عليك وادعيلك . فانشرح منه امير الجيوش ، وامر برفع العسكر من الأزهر ، وخامس يوم اطلق المنادي بالامن والامان ، وفتحت البلد ثانية ... »[1]

إلا أنه يبدو لنا صعوبة الأخذ برواية نقولا الترك عن وساطة الشيخ محمد الجوهري ، فقد كانت تربط هذا الشيخ الوقور بالجبرتي أوثق الصلات العلمية والاجتماعية . وقد ترجم له الجبرتي في وفياته عام ١٢١٥ هـ ترجمة ضافية [2] ، وذكر مناقبه ، وأشاد بأستاذيته الشامخة ، وعلو مركزه ، ولكن لم يشر — لا من قريب أو بعيد — إلى وساطته لدى بونابرت من

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢٩—٣٠ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

أجل إخـــلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، وإعادة فتح أبوابه للعلماء والمجاورين ، نرى أن هذه الواقعة لو كانت صحيحة لما تردد الجبرتي في ذكرها بل وفي إبرازها إبرازاً قوياً ، خاصة وأن الجبرتي سجل للشيخ الجوهري مواقف هامـة ومشرفة تتصل بمشيخة الأزهر ، وكل ما سطره الجبرتي عن حياة الشيخ الجوهري خلال الحـكم الفرنسي لا يتعدى قوله : « ولم يزل وافر الحرمة ، معتقداً عند الخاص والعام ، حتى حضر الفرنساوية واختلت الأمور ، وشارك الناس في تلقي البـلاء ، وذهب ما كان له بأيدي التجار ، ونهب بيته وكتبه التي جمعها ، وتراكمت عليه الهموم والأمراض ، وحصل له اختلاط ، ولم يزل حتى توفي يوم الأحـد حادي عشرين شهر القعـــدة سنة تاريخه ، بحارة براجون ، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل »[١] . ومن الملاحظ أن بعض الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث قد أخذوا برواية نقولا الترك بشكل حرفي من غير أن يعنوا بمناقشة جوانبها المختلفة ، ونرى أن مجرد ترديدهم لوساطة الشيخ محمد الجوهري لا يعزز تلك الواقعة ما لم تقم أسانيد قوية لتأييدها[٢] .

أما عن رأي نقولا الترك والجبرتي في محمد عـلي وحكمه ، فقد عبر كل منهما عن وجهة نظر متعارضة تماماً مما يكسب التاريخ المصري الحديث صبغة هامة . فالجزء الذي كتبه نقولا الترك مكملاً للحملة الفرنسية ويصل بالقارئ إلى شهر أغسطس عـام ١٨٠٤ يُمكّن الباحث من الوقوف على

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(٢) مما يضعف رواية نقولا الترك ويثير حولها المزيد من الشكوك أن علماء الأزهر أعضاء الديوان أذاعوا في نفس اليوم الذي قابلوا فيه بونابرت بياناً إلى سكان القاهرة ، قرروا فيه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم وطلبوا من السكان الإخلاد إلى السكينة ، تجنباً لسفك مزيد من الدماء ، وحفظاً لعائلاتهم ، وإبقاء على دينهم ؛ انظر : عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣ ؛ وراجـع أيضاً هذا المنشور في : عبدالرحمن الرحمن ، تاريخ الحركة الآثار ، ج ١ / ٣٨٠ .
La Jonquière C., *L'Expédition d'Egypte, 1798-1801*, Paris, 1899 - 1907, T. III, p. 285.
ومما هو جدير بالذكر أن هذا البيان قد كتب بإيحاء من بونابرت شأن كل البيانات التي أذاعها علماء الأزهر أعضاء الديوان سواء على عهد بونابرت أو كليبر أو مينو .

معلومات تتصل بأوائل ظهور محمد علي ، وفيه يبدي نقولا الترك تفاؤله وحسن ظنه به . بل إن العبارات التي كتبها عنه تتسم بالمدح المتزايد والتفخيم المتناهي فيقول مثلاً : « واما ما كان من أمر الساري عسكر محمد علي ، صاحب المقام العلي ، والكوكب الجلي ، فانه تمكن من مصر ، وساعده النصر ، ونال مرامه ، وقهر اخصامه ، وكان رب مكيده ، وامراه سديده ، فهذا ما تم بتقدير العزيز العليم »(١) . والواقع أن نقولا الترك لم يشهد من حكم محمد علي شيئاً ، فهو لم يمكث بمصر بعد عام ١٨٠٤ إذ غادرها عائداً إلى لبنان ، ولم يشهد أو يدرك التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي حدث في البلاد خلال عهده . ولكن نقولا الترك – قبل أن يعود إلى لبنان – أسس في مصر علاقات طيبة في أوساط « الشوّام » وأكثرهم من التجار وكتاب الدواوين ، فبقي على معرفة بشؤون البلاد وإمكانياتها الحربية والسياسية والاقتصادية . وهكذا كان نقولا الترك يميل إلى محمد علي ويقدره حق قدره ، وربما أدى ذلك – على الأرجح – إلى ميل الأمير بشير الشهابي الثاني إلى محمد علي واستعداده للجوء إليه والاعتماد عليه(٢) .

لقد شهد نقولا الترك فترة الصراع التي أعقبت خروج الحملة الفرنسية من مصر ، فتحدث عن المماليك ومحاربة محمد علي لهم ، وكان وصفه ينبض بالتعاطف والتأييد للجهد الذي قام به محمد علي . ونسوق في هذا المجال فقرة من الفقرات الكثيرة التي كتبها حول هذا الموضوع فيقول :

« وفي أربعة عشر يوم من هذا الشهر نهار الأحد ،
تقدمت الغز البحريين ، وساري عساكرهم الامير ابراهيم بيك ،
وعثمان بيك البرديسي ، وباقي السناجق والكشاف والمماليك
مع طموش العربان ، فخرج لهم ذلك الهمام الساري عسكر

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ١٨٩ .
(٢) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٥ .

محمـــد علي ، وهو كالاسد الدرغام ، وساقي الارناووط ، والسكمان ، ونشر الاعلام ، واصطفت الرجال للقتال ، ونعق غراب الوبال ، وتقدمت الفرسان للميدان ، وظهرت الشجعان ، وبرزت الغزا ، والجهاد والحرب والجلاد على الخيول الجياد ، وانطلقت المدافع ، واشتدت المعامـع ، وتلاطما الفريقان ، وامتزجا العسكران ، ولعب الهندوان ، ولعلـــع الزال ، وتناثرت الجماجم من العرب والأعاجم ، وسال الدمـا على الرمال ، وزاد النكال واشتد الجدال وامتد القتال ، واتصل الضرب والطعان ستة ساعات من الزمان ، وكان يوما يفقع المرارة من شدة الحراره ، لانه كان واقعا في عاشر يوم من شهر تموز (يوليو) والشمس قـــد يبست الماء في الكوز وضاقت النفوس ، وكل من الحروب كل قرم عبوس ، وتزاحمت الارناووط ، وتجمعت جمعا غير مفروط ، الى ان بلغ جمعها اربعه الاف مقاتل ، وكان الغز مقدار الف فارس غـــير القبايل ، فلم تستطع الثبوت أمـــام هولاء الرثوث ، فولوا منهزمين ، وسعوا راجعين ، إلى ارض بهتين ، من بعـد ما فقد منهم عـده من الفرسان ، ولم تنفعهم من هذه الحرب طموش العربان .... » [1]

ثم يوالي وصفه للنصر الكبير الذي أحرزه محمـــد علي والأمن والاطمئنان الذي ساد البلاد ، وانكشاف الغمة وانتشار الرخاء في عبارات تؤكد ما سبق أن أوضحناه وهو ميله وتقديره لمحمد علي ، فيقول : « وفي ٢٤ شهره من بعد رحيل الغز دخل الساري عسكر محمـد علي بجميع العساكر إلى القاهرة بيمين ظافرة ومعمعة وافرة وامن واطمينان وعز وسلطان وانفتحت الطرقات الامنية وانكشفت الغمه من المدينه ، وتواردت الغلال إلى القاهرة

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

من البلاد القريبة »[1] . وهكذا لم يشهد نقولا الترك أحداث مصر بعد عام ١٨٠٤ ، فتوقفت روايته عند فترة الفوضى والاضطراب والصراع والتي انتهت بتولي محمد علي حكم مصر في عام ١٨٠٥ .

أما رواية عبد الرحمن الجبرتي عن حكم محمد علي فهي أعمق وأشمل لاسيما وأنه عاصر ما يقرب من النصف الأول من حكم محمد علي . وإذا كان نقولا الترك قد قدر محمد علي كل التقدير ، فإن الجبرتي قد وقف من حكم محمد علي موقف المعارضة . فلقد استند حكم الجبرتي على ما شهده من عصر محمد علي على أساس أخلاقي ، ومن منطلق انتمائه إلى الفئات التي مستها اجراءات محمد علي الصارمة كالملتزمين وكبار حائزي الأراضي وأثرياء المشايخ والمماليك . فالجبرتي — مثلاً — كان ميالاً للمماليك وكان يحترم الكثير منهم ، وبخاصة ابراهيم بك ومحمد بك الألفي . وأبلغ ما يصور حبه لمحمد الألفي وكرهه لمحمد علي تلك العبارة التي أجراها على لسان محمد الألفي عندما اشتد به المرض فيقول : « لم يزل [الألفي] سائراً حتى وصل إلى قريب قناطر شبرامنت ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها . وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر إلى جهة مصر وقال : يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأرنؤد ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك . ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموي ، وفي الحال تقايأ دماً وقال : قضي الأمر ، وخلصت مصر لمحمد علي ، وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، وما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم »[2] . لقد دافع الجبرتي عن المماليك الذي لقبهم « بالأمراء المصرية » واعتبر محمد علي ورجاله دخلاء على البلاد . كما أنه لم

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، ص ٢١٧ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

ينع على الألفي اتصاله بالانجليز ، بل إنه « عندما سافر إلى بلادهم تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمــارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم »[1] .

وهكذا لم يحفل الجبرتي بالتغيير وبواعثه ، بل أخــذ يقيس الأمور بمقياس الأخلاق وحدها . لقد تغنى الجبرتي بالعدل ، أي إقامــة الشريعة والرفق بالرعية ، وهاجم ظلم الحكام . فلم يقدر الجبرتي كنه هذا التغيير ومغزى السياسة التي اتبعها محمد علي . فلقد وقف بتاريخه عند عام ١٨٢١ ، ولم تكن سياسة محمد علي قد اتضحت أبعادها وآثارها بعد . فاتهم محمد علي بأنه قد اعتدى على « مساتير الناس وأغلق البيوت المفتوحة لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم » . فكان يعتقد أن الشغل الشاغل لمحمد عــلي هو « تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراءاته ومقاصده ، ومن كان بخلاف ذلك فــلا حظ له مطلقاً ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع حقد عليه ، وربما أقصاه وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً . وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته فلم يمكنهم إلا الموافقة والمساعدة في مشروعاته إما رهبــة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، وإما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة » .

ولا غرو فقد شمت الجبرتي في النهاية التي آل إليها السيد عمر مكرم ، إذ اعتبر ذلك عقاباً سماوياً له لأنه لعب دوراً أساسياً في تولية محمد علي الحكم ، ثم فقد ساعد على تولية « ظالم » فاستحق بذلك العقاب . وأوضح الجبرتي أن محمد علي عمل بذكاء وحذر شديدين لاستمالة عمر مكرم نحوه ، وبذل له الوعود الخلابة بأنه إذا أتيح له حكم مصر فسيكون حريصاً على التزام العدل والبعد عن المظالم . ويعبر الجبرتي عن خداع محمد علي بعبارات

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

قوية إذ يقول : « وانتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضي ... ومحمد علي يداهن السيد عمر سرا ، ويتملق إليه ، ويأتيه ، ويراسله ، ويأتي إليه في أواخر الليل وفي أوساطه ، متردداً عليه في غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل ، وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه ، وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن ، فيتورط المخاطب [أي عمر مكرم] بذلك القول ، ويظن صحته ، وأن كل الوقائع زلابية »[1] .

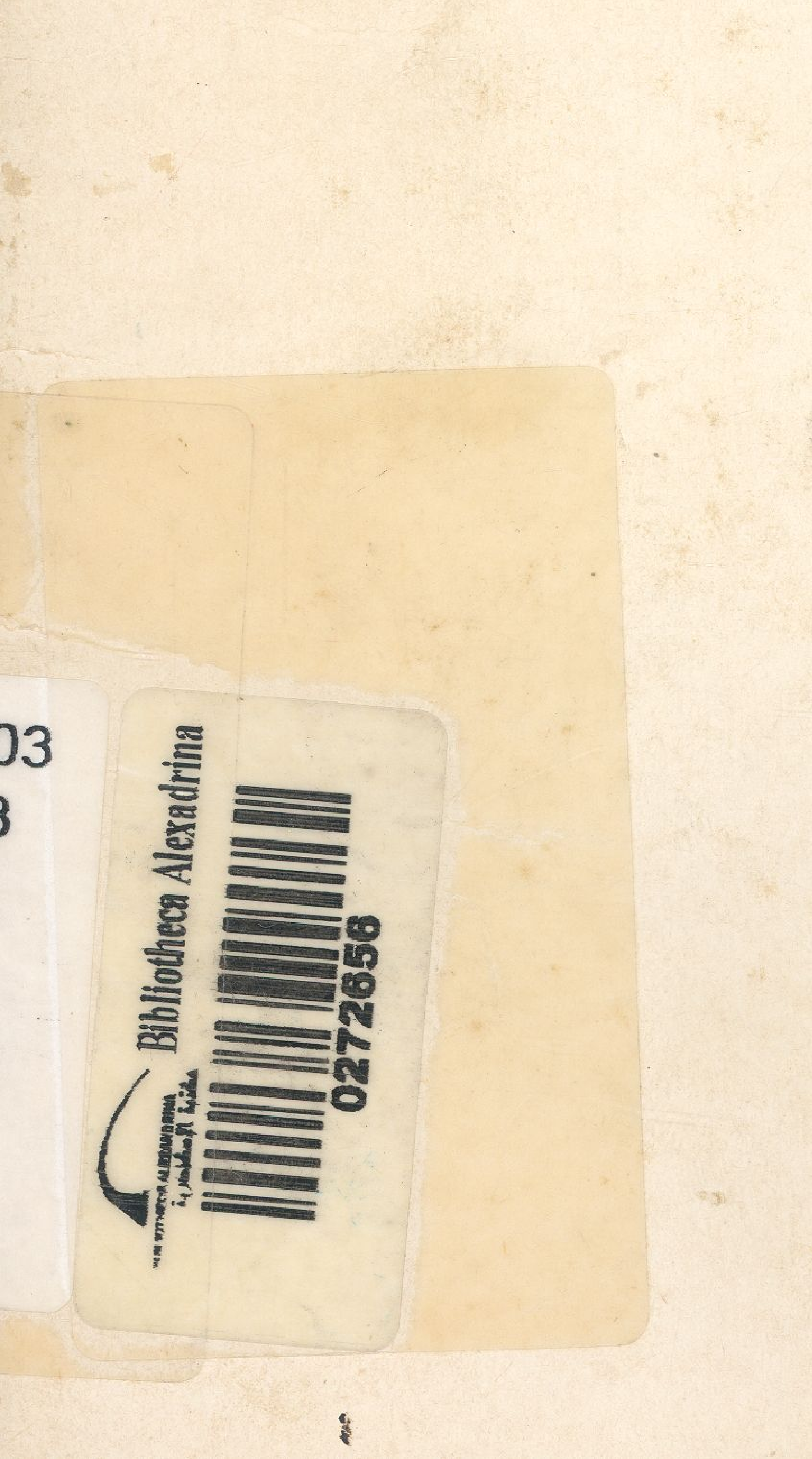
وهكذا رسم الجبرتي صورة صادقة إلى حد كبير عن محمد علي في هذه السنين الأولى من حكمه . ورغم أن عاطفة الجبرتي نحو محمد علي لم تكن عاطفة المحبة والتقدير ، إلا أن أمانة المؤرخ لم تمنعه من الإشارة إلى ما فعل من عمل صالح أو نافع ، بل من الثناء عليه في بعض المواقف أيضاً . فبرغم تسجيله لما حاق بالفلاحين من ظلم أثناء حفر ترعة المحمودية الذي ذهب ضحيته الكثيرون ، فإنه لا يتردد في الإشادة ببعض الأعمال الجليلة التي قام بها محمد علي ، فمن ذلك — مثلاً — حديثه عن دار الصناعة وإنشائها فقال فيها إنها « دار صناعة عظيمة »[2] . كما سجل لمحمد علي أنه أصلح منطقة فسيحة من الأراضي في مديرية الشرقية ، تعرف باسم رأس الوادي ، ونقل كثيرين من فلاحي هذه المديرية ، الذين لا يملكون أرضاً ، فاستوطنوا هذه الأراضي المستصلحة وزرعوا أشجار التوت وأقاموا فيها أكثر من ألف ساقية للري . ومما ذكره الجبرتي من الحسنات القليلة التي سجلها لمحمد علي تشجيعه أبناء مصر وفتح أبواب التعليم أمامهم . فلقد علم محمد علي أن مصرياً « من أولاد البلد » يدعى حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه لا تحتاج إلى جهد كبير . فطلبه إليه

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٢ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

وأعطاه مالاً وأمره بأن يسير إلى دمياط ليقيم فيها مصنعاً تستخدم فيه هذه الآلة التي اخترعها . وأمر بأن يسلم إليه ما يحتاجه من الأخشاب والحديد وأدوات البناء . فلما أقامه حسين عجوه ونجحت آلته ، أمر بإقامة مصنع آخر في رشيد وأنعم عليه بمال مكافأة له . ثم تنبه محمد علي لما عند المصريين من قدرة ونشاط ، فأمر بإنشاء مدرسة في فناء قصره ، جمع فيها طائفة من الصبية المصريين ومن مماليكه ، وخصص لهم معلمين بعضهم من الأوروبيين . وأحضر لهم الأدوات الهندسية من انجلترا ، وخصص لكل صبي راتباً شهرياً وكسوة . وكانت هذه بداية مدرسة « مهندس خانة » . وهكذا نجد أن الجبرتي لم يظلم محمداً علياً ، ولم يغمطه قدره ، ولم ينشر شروره ويطوِ خيره ، بل كان منصفاً أميناً ، يذكر ما له وما عليه . ولقد وصف محمد علي بأن له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

ويتضح من هذه الدراسة المقارنة أن هذين المصدرين يعالجان مرحلة هامة من مراحل التاريخ المصري في مطلع القرن التاسع عشر . فقد عاصرا فترة الحملة الفرنسية وغطّيا أحداثها المتلاحقة ، وانعكاساتها المختلفة من اقتصادية وسياسية واجتماعية على المجتمع المصري ، مما يجعلهما أهم مصدرين لا غنى لأي باحث عن الرجوع إليهما والاعتماد عليهما في رسم الصورة الحقيقية لتاريخ مصر في تلك الفترة . كما أوضحنا أثناء معالجتنا لهذا الموضوع الأهداف التي دفعت كُلاً من عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك إلى الاقدام على كتابة تاريخيهما ، وأوضحنا بالمثل مفهوم كل منهما عن التاريخ ومنهجه ، وأثر البيئة التي عاشا فيها على تفسير الأحداث التاريخية التي كتبا عنها . ولقد اتبع عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك طريقة تكاد تكون متقاربة في كتابة التاريخ وهي طريقة اليوميات والحوليات ، إلا أن الجبرتي اهتم أيضاً — بالاضافة إلى سرد الأحداث التاريخية — بتراجم الشخصيات البارزة في المجتمع في كل عام . وقد أوضحت هذه

الدراسة أنه برغم اتفاق الجبرتي ونقولا الترك حول بعض المسائل الدينية والاجتماعية التي نتجت عن مجيء الحملة الفرنسية ، إلا أنهما اختلفا في تفسير بعض الأمور السياسية ، وقد عرضنا لبعض الأمثلة للدلالة على ذلك . ومن أهم النتائج التي أبرزتها هذه الدراسة المقارنة هو أن مؤلفي الجبرتي ونقولا الترك يعتبران مصدرين وثائقيين عن أحداث التاريـخ المصري إبان الحملة الفرنسية . وفي ضوء هذه الأهمية ركزت هذه الدراسة على مقارنة مقتطفات نصيّـة من المصدرين لتفسير رأي كل من الكاتبين في الأمور والقضايا التي طرأت على التاريخ المصري في تلك الفترة ، وما سجلاه من حقائق هامة بالنسبة للمهتمين بدراسة تاريخ مصر في تلك المرحلة .



03
Bibliotheca Alexandrina
0272656